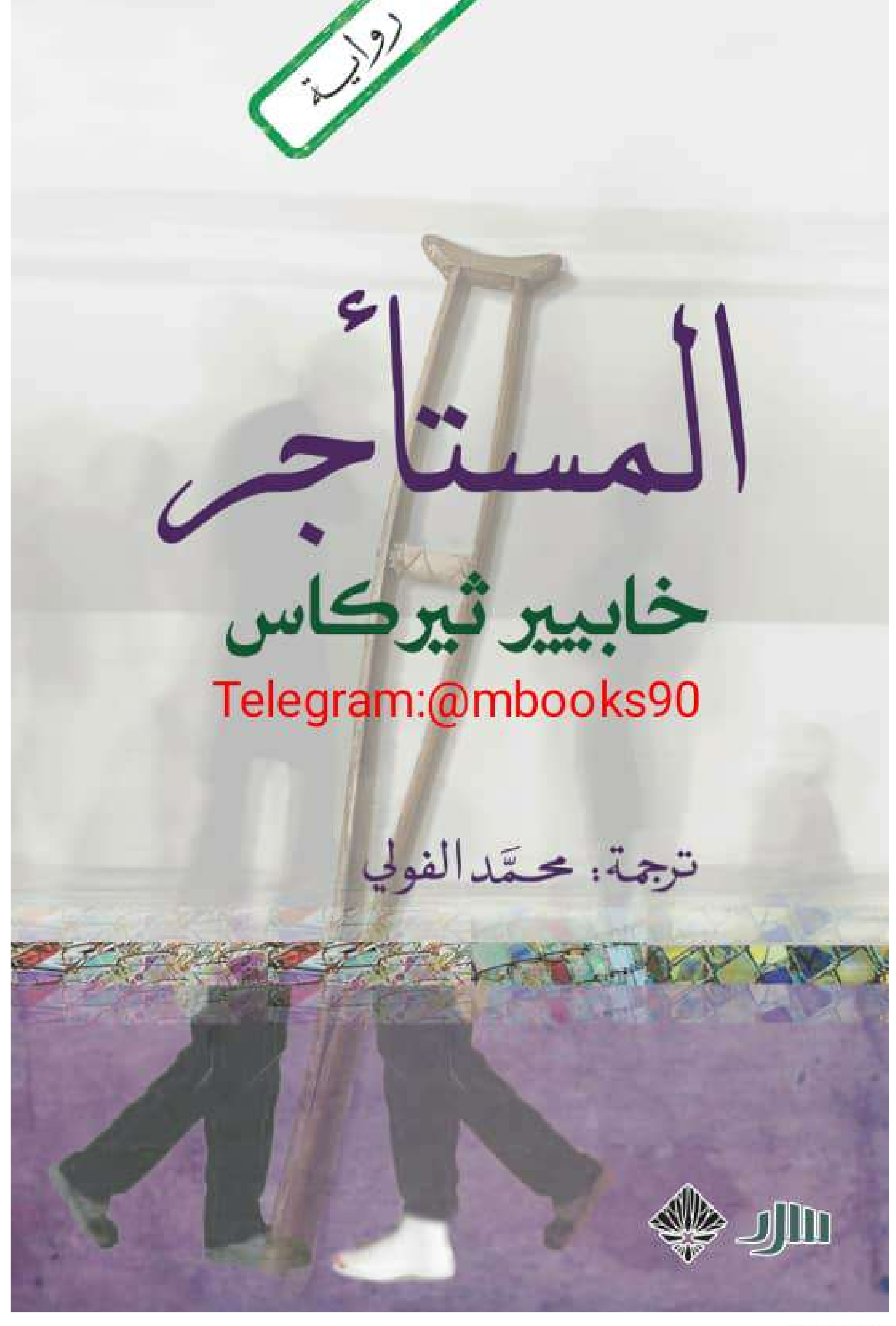

رواية
المستأجر
خابيير ثيركاس
Telegram:@mbooks90
ترجمة: محمّد الفولي

المستأجر - رواية

تأليف: خابيير ثيركاس

ترجمها عن الإسبانية: محمّد الفولي

El inquilino

Javier Cercas

تصميم الغلاف: نجاح طاهر

978 - 9933 - 701 - 05 - 5 :ISBN

الطبعة الأولى: 2024



سوريا - دمشق - ص ب: 9838

الإمارات العربية المتحدة، الشارقة، مدينة الشارقة للنشر - المنطقة الحرة، مركز الأعمال.

جوال: 557195187 971+

البريد الإلكتروني:
addar@mamdouhadwan.net

الموقع الإلكتروني:
addar.mamdouhadwan.net

fb.com /Adwan.Publishing.House

twitter.com /AdwanPH



دار سرد للنشر

جوال: 81756938 961+

البريد الإلكتروني:

info@darsard.net

الموقع الإلكتروني:

www.darsard.net

facebook.com /Sard.Publishing

twitter.com /SardPublishing

تمهيد

كتبت هذا العمل في عام 1988، وكنت قد أكملت للتوّ عامي السابع والعشرين، بعد أن مرّ عامٌ عليّ وأنا أعيش في أوربانا، إلينوي، وهي مدينة أميركيّة جامعيّة صغيرة تقع على بُعد ساعتين بالسيارة من شيكاغو. إنها المدينة نفسها التي تجري فيها أحداث هذه الرواية. يعمل بطلها، أستاذ علم النطقيّات ماريو روتا، في المكان نفسه الذي عملت فيه، ألا وهو «مبنى اللغات الأجنبية»، ويعيش في المكان نفسه الذي عشت فيه، وهو شقّة في بيت من طابقين يقع في شارع «ويست أوريغون»، ولها مدخلٌ مسقوف، ويدخل ضوءٌ فيّاض عبر نوافذها الكبيرة في الأيام المشمسة. لا داعي لقول إنّ هذه الرواية، ككلّ الروايات التي كتبتها، أو ببساطة ككلّ رواية مقبولة، تعتمد على السيرة الذاتية، لا لأنها تتناول حادثاً معيّناً وقع لي فعلاً في أوربانا، وإنما لأنها إعادة بناءٍ استعارية وانعكاسٌ مُخلص جدّاً لتجربتي إبّان تلك السنوات في الولايات المتحدة.

كانت حقبةً رائعة. غادرت إسبانيا وكتابي الأول أسفل ذراعي، وأنا أفرّ من الوجود

الفوضوي في برشلونة، بعد أن جذبني عرضُ الوظيفة والراتب الثابت وبريق أميركا الذي لا يصدأ. هكذا، وفي ظلّ انبهاري بكتّاب أميركيين معيّنين، أحسب أنني تطلّعت، في السرّ تقريباً، إلى أن أغدو كاتباً أميركيّاً، أو كاتباً أميركيّاً ما بعد حداثيّ على وجه الخصوص. مع ذلك، لم أستغرق وقتاً طويلاً في التوصّل إلى اكتشاف مفاجئ، على الأقل بالنسبة إليّ، وهو أنني إسباني (أو هذا المزيج بين الطباع الكتالونيّة والإكسترامادورية التي لا يخطر على بالي سوى أن أسمّي نفسي بسببها إسبانيّاً). لهذا بدأت أفعل الأمور التي يُفترض أنّ معشر الإسبان يفعلونها، على الرغم من أنني لم أُقدم عليها قبلئذٍ قطّ: نوم القيلولة، وتناول الغداء في الثالثة مساء، والتحدّث بعلوّ الصوت. يعرف كلّ من عاش فترةً معقولة بعيداً عن بلاده، أنه لا غرابة في كلّ هذا، إذ لا يتبيّن المرء مكانه في العالم، إلا حين يفقده، ولا يعرف أيّ منزلٍ هو بيته، إلا حين يغادره، ولا يبدأ في استقصاء ذاته، إلا حين يبدأ في النظر إلى نفسه من بعيد. في ما يتعلّق بالوظيفة، ارتكزت على تدريس محاضرات لغة إسبانية لطلّاب

جامعيّين من وسط شرق الولايات المتحدة، وحضور صفوف برنامج الدكتوراه في الأدب الإسباني، في مقابل الحصول على مكافأة تكفيني للعيش، والسفر عبر البلاد، والعودة إلى إسبانيا مرّتين في السنة. أتممت التزاماتي الأكاديمية بحذافيرها، لكن من دون حماس. احتفظت بالحماس للقراءة والكتابة، وأيضاً لإنجاز بعض الأعمال التحريرية التي جاءتني من برشلونة، واهتممت بها أكثر من الصفوف، ومنها إصدارٌ من «*أماديس دي غاولا*» كلّفني به فرانثيسكو ريكو، ومختارات مترجمة لقصص إتش. جي. ويلز، وترجمة أحد مقالات جوان فيراتيه، عن قصيدة «*الأرض اليباب*»، لـ«تي. إس. إليوت»، وترجمة «*الرجل الذي تاه*»، لفرانسيسك ترابال.

لكنّني أكرّر أنني كرّست أغلب وقتي للقراءة والكتابة؛ القراءة على وجه الخصوص. كانت أوربانا آنذاك مدينةً تحوطها امتدادات هائلة من حقول القمح، تتبعثر في ما بينها قرى صغيرة متطابقة لا تزورها فصول الربيع ولا الخريف، فتختنق من الحرّ الرطب صيفاً ويكسوها الجليد بارتفاع شبرين شتاء، لكنّ حياتها الجامعية - وهي الحياة الوحيدة المعروفة هناك لأن كل شيء دار حول الجامعة- كانت عارمةً وضوضائية، ففارت كلّ مبانيها في العطلات الأسبوعية بحفلاتٍ طلّابية امتدّت حتى الفجر، وامتلأت بأحاديث بلغاتٍ مختلفة وأطباقٍ من كلّ أطعمة الكوكب. فوق كلّ هذه الغبطة، بدا قسم اللغة الإسبانية أحياناً كأنه مُحتلّ من قبل المثليّين بصورة جعلتنا نحن معشر الغيريّين -وبالأخص الغيريّون الناطقون بالإسبانية- هدفاً لاهتمام أنثوي لم أحظَ به قبلئذٍ قطّ، ولم أحظَ به لاحقاً. إيجازاً، لم يكن ثمّة شيء ليفعله المرء في هذه المدينة الضائعة وسط العدم، ومع ذلك، لم يكن ثمّة وقتٌ طويل كي يشعر بالملل. أيضاً، هنالك المكتبة، وهي واحدة من أكثر المكتبات ثراءً في أميركا الشمالية، فقد ضمّت آنذاك نحو عشرة ملايين مجلّد، لكن أفضل شيء في المكتبة ليس كمية ما فيها، وإنما جودته. ما أودّ قوله هو إنّ المستخدمين شمح لهم باستعارة الكتب بكميات كبيرة والتجوّل من دون محاذير عبر متاهة الأرفف، على عكس مكتبات القرن التاسع عشر الإسبانية في تلك الحقبة، بصورة كان المرء يصل معها إن عاجلاً أم آجلاً إلى أهمّ اكتشاف يُمكن للمرء أن يعثر عليه في مكتبة، وفقاً لألبرتو مانغويل، وهو أن تعرف أنك لا تبحث عن الكتاب الذي تبحث عنه، فهذا

الكتاب ستقرؤه بكلّ الطرق، وإنما عن الكتاب الموجود إلى جواره بالضبط. هكذا، قرأت، على مدى تلك السنوات، لا كتباً لمؤلّفين ما بعد حداثيين أميركيين اشتهيتهم (مثل دونالدو بارثيلمي، وروبرت كوفر، وجون هوكس، وويليام غاديس، وريتشارد براوتيغان، أو جون إيرفينغ) فحسب، وإنما أيضاً كتباً لمؤلّفين مشابهين لهم تقريباً وعثرت عليهم بالمصادفة، مثل ستانلي إليكن، وهاري ماثيوز، بل حتى آخرين لا تربطهم ظاهرياً أيّ علاقة بهم مثل إيفيلن ووه أو إيمانويل بوف. قرأت هناك أيضاً كتباً لم أعرفها لهيمنغواي، وكالفينو، وبيوي كاساريس. اكتشفت هناك كتّاباً من أميركا اللاتينية لم أكن قد سمعت بهم قبلئذٍ قطّ، بفضل صديقي الشاعر إنريك بالديس، وبالمثل بعضاً من الشعراء التشيليّين مثل خورخي تيير، وإنريكي لين، وعلى وجه الخصوص نيكانور بارّا، الذي ذات مساء لا يُنسى قدّم قراءة لقصائده في الجامعة. قرأت هناك أيضاً، داخل هذه المكتبة، التي بدت كأنها تضمّ كلّ الكتب، لبعض المؤلّفين الإسبان غير المعروفين والمنسيّين في إسبانيا آنذاك، مثل: رفائيل سانشيث ماثاس، وغونثالو سواريث، وصاروا لأسباب متنوّعة مهمّين لاحقاً بالنسبة إليّ.

لا أعرف ما إذا كانت كلّ هذه القراءات قد تركت أثرها في «*المستأجر*». قد تكون مسألة صحيحة، لكنني أعجز عن اقتفاء أثرها؛ ربما لأنّ اقتفاء الأثر ليس سهلاً كما يظنّ البعض، خاصة حين يكون أثراً يخصّ المرء نفسه. على الرغم من أنّ أحداث الرواية تدور في حرمٍ جامعيّ أميركيّ، وأنّ كلّ الشخصيات جامعيّون، فإنني لم أتخيّلها كرواية جامعيّة؛ هذا التصنيف الفرعي الأنغلوسكسوني الذي جهلت وجوده تقريباً حين كتبت روايتي، ولطالما أنتج ثماراً مدهشة مثل «*جيم المحظوظ*» لكينغسلي أميس، أو «*لوليتا*» إن اعتبر البعض أنها رواية جامعيّة. في الواقع، إن وجدت نفسي مُجبراً على تعريف هذا الكتاب، فربما سأقول إنه كابوس واقعي كتبه شخصٌ شغوف بأدب الفانتازيا، كما كانت حالي آنذاك، وإنه تفهّم بعد قضاء سنوات كثيرة من قراءة كافكا، بصفته أحد رواة أدب الفانتازيا (أو الرعب)، أنّ الكاتب التشيكي الذي لا ينضب مَعينه كان أيضاً كاتباً هزليّاً. أيّاً كان، لا تبدو لي قراءة «*المستأجر*» باعتبارها رواية جامعيّة لها خصوصيتها أمراً غير جائز، إذ حدث أن قُرِئت وفق هذا المنظور طيلة سنوات؛ على الأقل في قسم اللغة الإسبانية في

أوربانا. أعرف هذا لأنه بعد عقدٍ من نشر الكتاب، حين عدت للمرة الأولى والأخيرة إلى أوربانا، حكى لي زملائي القدامى أنه كلّما انضمّ أستاذٌ جديد إلى فريق القسم، ركض إلى المكتبة ليقرأ الرواية للتعرّف إلى زملائه عن قرب، وكأنّ *«المستأجر»*، شأنها شأن كثير من الروايات الجامعيّة، رواية ذات مفتاح؛ ويُقصد بهذا المصطلح نمطٌ من الخيال السردي تُعَدّ فيه كلّ شخصية مبتكرة قناعاً لإنسان من شحم ولحم، أو نسخة خيالية منه. دفع هذا التداخلُ المتكرّر بين الخيالي والواقعي رئيسَ قسم اللغة الإسبانية -الذي شعر على ما يبدو بأنّ شخصية رئيس القسم في الرواية صورة مرسومة بلا حبٍ له- إلى الاضطلاع بهذا الشأن، فانتهى المطاف باختفاء النسخة الوحيدة من الرواية من المكتبة، وهي مسألة -بناءً على معايير الأمان التي تحمي هذا المبنى- لا بدّ أنها كانت بسيطة تقريباً مثل إخفاء سبيكة ذهب من قاعدة «فورت نوكس» في ولاية كينتاكي.

أشرت إلى الفانتازيا والهزل كعنصرين تعريفيّين لهذه الرواية. يجب عليّ أن أضيف إليهما ميزتها التصويرية أو ميلها إلى هذا المنحى، ووجود إحساس دائم بالغرابة، وهي الأمور التي تعكس بلا شك انبهاري كشخصٍ أجنبيّ بالواقع الذي أحاطني. من سيتحمّس لقراءة هذه الصفحات، ربما سيفتقد أشهر -أو أفخم- سمات كتبي الأكثر قراءة؛ ألا وهي استراتيجيات الأدب من أجل الأدب والتخييل الذاتي والسرد المُعفى من التخييل المجرّد، ووجود الماضي كبُعد للحاضر، أو الجماعية كبُعد للفرد، لكن لو أنّ ثمّة قارئاً حسن النيّة -أو بمعنى آخر ينتهج المتعة- فلا بدّ أنه سيقبل أنه ما من شيء -أو ما من شيء تقريباً- في جوهر هذه الرواية بعيد عن رواياتي اللاحقة، وأنّ هذه الروايات مجرّد تطوّر غير متوقّع -لكنّه طبيعي- لها، بل وفي بعض الأحيان تجلٍّ فائق الواقعية للروايات السابقة، خاصة أنني تقريباً بداية من رواية *«جنود سالامينا»* -ومن دون أن أعرف- لم أغدُ كاتباً ما بعد حداثي، وصرت ربما ما يجب علينا أن نستسلم ونسمّيه بالكاتب ما بعد بعد الحداثي.

من المحتمل ألّا يعرف الكاتب أبداً الموضوع العميق لكتابه أو ماهية المخاوف الخفيّة أو الطموحات أو حتى الخيبات التي شكّلته. أتذكّر أنني لم أقرأ *«المستأجر»* ثانيةً إلّا منذ نحو عشرين عاماً، وأنا أستعدّ لإعداد طبعة جديدة مثل هذه، وشعرت

حينذاك بأنّ الرواية تتناول في السرّ خوفي، بل ورعبي تقريباً، من أن أظلّ طيلة حياتي في ذلك البلد الذي أحسن استقبالي واستضافتي، وأن أمضي عبر هذه الحياة السهلة الغريبة الهائمة عديمة القوام، بصفتي أستاذ لغة إسبانية، داخل حرمٍ جامعيّ شديد الراحة والغرابة مثل حرم أوربانا، لأنّ هذا المصير هو الذي كانت ستقودني إليه وضعيّتي كباحث في الأدب الإسباني. مع ذلك، تمكّنت من تجنّبه بصورة إعجازية تقريباً. أتذكّر أيضاً أنني شعرت بحنين إلى ابن العشرينيات الحُرّ الشرس المتقلقل، وأنني راقتني طاقة السرد وحيويّته، ونضارته، وسلاسته، التي أحسب - ربما بسخاءٍ زائد عن الحدّ- أنني استشعرتها أثناء هذه القراءة.

حينما نُشرت *«المستأجر»* لأوّل مرّة في 1988، كانت مغامرتي الأميركيّة قد انتهت وعدت إلى إسبانيا. قرأ الرواية أناسٌ قليلون، ولم تحظَ تقريباً بأيّ مراجعات في الصحافة، وهو ما حدث دائماً مع كتبي الأولى. لم يسمعني أحدٌ وأنا أشكو من الأمر. كنت مجرّد كتالونيّ من الريف في العشرينيات من عمره ومن دون أدنى علاقة تُذكر بالعالم الأدبي الإسباني. فوق هذا، نشرت أعمالي مع دار صغيرة جدّاً. بدا لي هذا الصمت طبيعيّاً جدّاً. لا يزال يبدو طبيعيّاً. لا يعني هذا الأمر أنني أتنصّل من *«المستأجر»*، ولا أنني أراها أقلّ ممّا كتبته لاحقاً، مهما زاد عدد قرّائه، بل إنني على النقيض لن أشغل بالي إطلاقاً إذا ما اضطرّ أحدٌ إلى الحُكم عليّ ككاتب على أساس هذا الكتاب، من ناحية لأنني أفتقد كثيراً الشخص الذي كتبه؛ ومن ناحية أخرى لأنني أتذكّر جيّداً بهجة كتابته في غرفة شقّتي التي غمرتها الشمس في شارع «ويست أوريغون».

- ألم تُغرم بأحدٍ قطّ؟!

- بلى، بك!

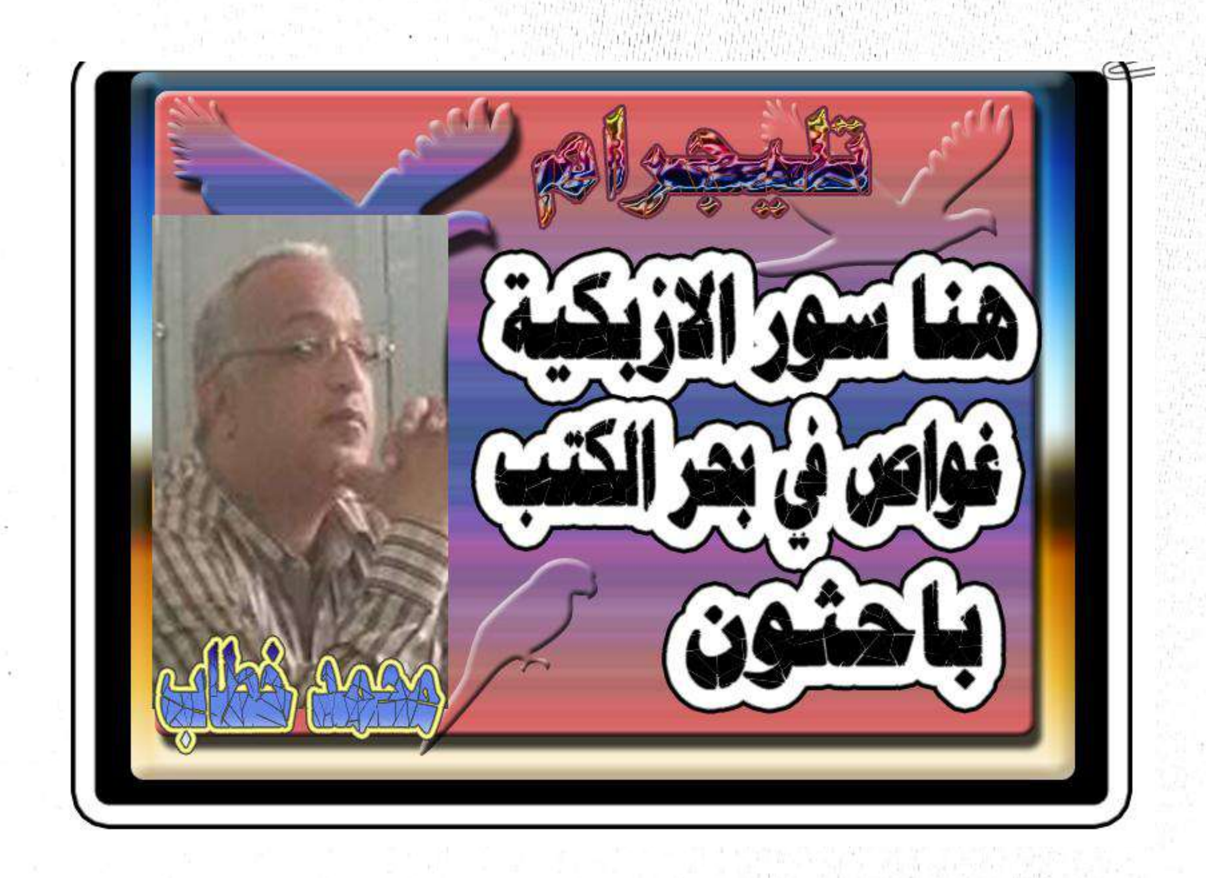
- وبماذا تحبّني؟

- بهذا.

- هذا هو الكبد.

- حسناً، لقد أخطأت. أحبّك بقلبي!

سيلبيريو لانثا (Silverio Lanza).

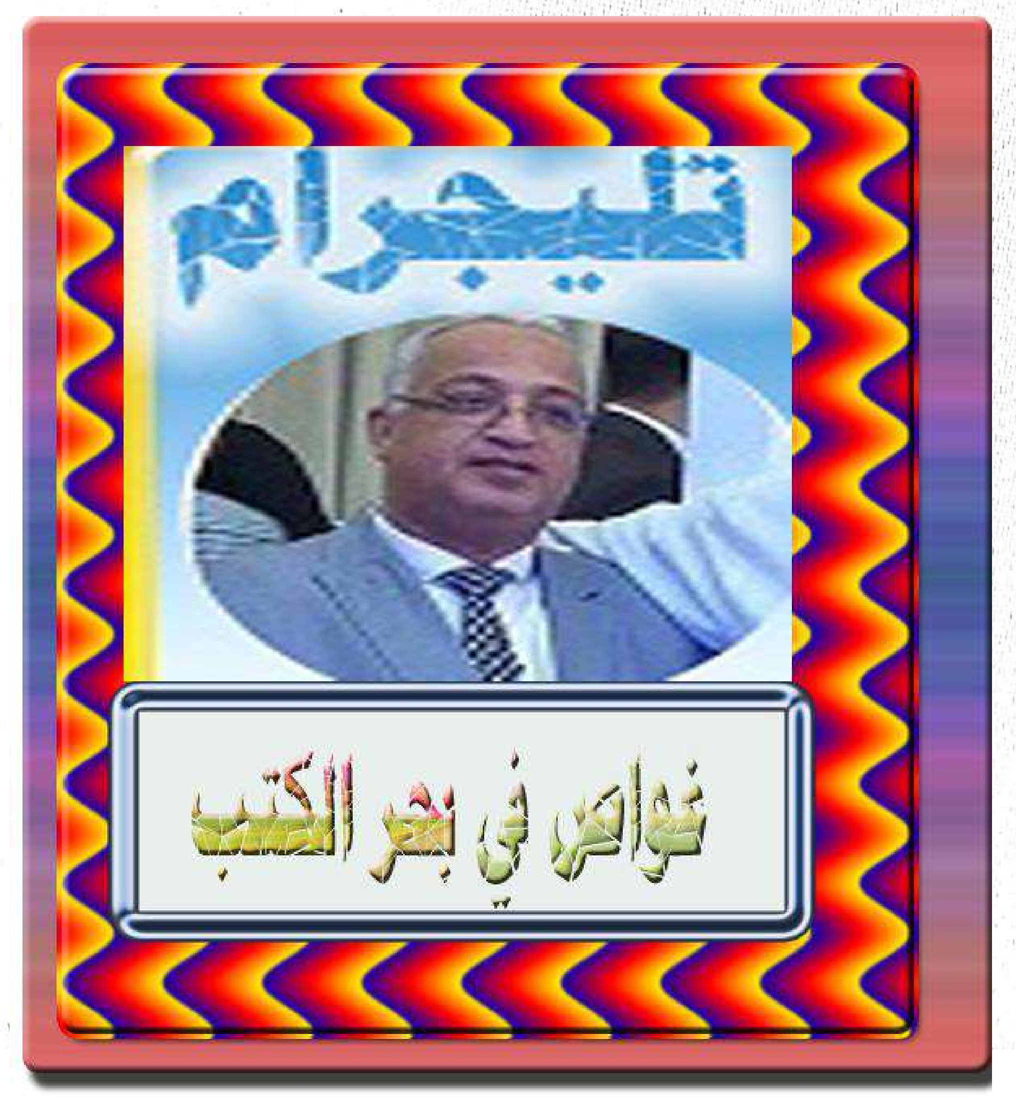


- 1 -

خرج ماريو روتا ليركض في الثامنة من صباح يوم الأحد. لاحظ فوراً هالةً ضبابية تطمس ملامح الشارع. بدا وجود البيوت الواقعة أمامه والسيارات المصفوفة إلى جوار رصيف المشاة ومصابيح أعمدة الإنارة مهزوزاً ومبهماً. أدّى بعض حركات الإطالة لذراعيه وساقيه فوق مستطيل العُشب الصغير الممتدّ أمام بيته. فكّر: «لقد حلَّ الخريف». بينما يقفز وتصل ركبتاه إلى محاذاة صدره، أعاد التفكير في الأمر غريزيّاً. قال لنفسه إنّ سبتمبر بدأ منذ وقت قليل. تراءت داخل عقله تهديدات مُبهمة لكوارث بيئية تتمثّل أعراضها الأولى في تغيّر تدريجي في الأحوال المناخية لكلّ فصل من فصول السنة، كما قالت الجريدة الأسبوعية الإيطالية المعروفة التي قرأها على الطائرة أثناء عودته من العطلة. ابتسم بصورة تتناقض مع تفكيره القلوق. عاد إلى البيت، ثم خرج بعدئذٍ بلحظة. كان قد ارتدى نظّارته هذه المرّة. انطلق ماريو ليركض بعد تبدّد الضباب عبر درب البلاط الرمادي الممتدّ بين الرصيف والحدائق النيّقة التي تصطفّ أمام البيوت وتحوطها أحواض زهور وأسيجة خشبية.

لطالما كان ماريو متعصّباً للانضباط، ولهذا كلّما خرج ليركض في الصباح، مضى في طريق ثابت، لكنّ علاقته الصعبة مع الواقع منعته من الانتفاع من الأمر. اعتاد في العام الماضي أن يركض عبر شارع «ويست أوريغون» حتى نهايته، مروراً بشوارع «كولر» و«ماكولو» و«بريتش»، وأن ينعطف يساراً عبر شارع «ريس» ليمضي قُدماً حتى ساحة «لينكوين»، وهي عبارة عن ميدان يعود إلى بداية القرن تُهيمن على مساحته «الكنيسة الميثودية المتحدة الأولى» بكتلتها الحجريّة الحديثة وتيجان أعمدتها الغريبة، قبل أن يمضي عبر «سبرينغفيلد» في طريق العودة وسط ورش إصلاح السيارات والمصارف ومتاجر البقالة ومحلّات البيتزا وصولاً إلى شارع «بيوسي»، حيث ينعطف يساراً ليدخل «ويست أوريغون» ثانيةً. مع ذلك، قرّر هذا العام، حين عاد من العطلة واستأنف منذ يومين روتين ركضه الصباحي، أن يغيّر مساره، بالجري في الاتجاه المعاكس. صار ينعطف الآن يميناً عبر شارع «ماكولو»، الذي تنتصب «الكنيسة الأولى للمسيح العالِم» عند ناصيته مع «ويست أوريغون»،

ثم يتوجّه نحو غرب المدينة، مروراً بشوارع «نيفادا» و«واشنطن» و«أورتشرد»، قبل أن يمضي في «بنسيلفانيا» حتى نهايته، حيث تقطعه جادة «لافييت»، التي يمتدّ خلفها مرجٌ عشبيّ، فيصعد هناك منحدراً ذا ميلٍ خفيف ينتهي بقطعة أرض جرداء، ويتوقّف للحظة عند قمّته وهو يسحب الهواء ويزفره عمداً، محاولاً ضبط إيقاع تنفّسه، فيتأمّل المشهد الطبيعي لفترة وجيزة، قبل أن يبدأ عودته عبر الطريق نفسه، بكلّ ما فيه من منازل من طابقين مبنيّة على الطراز الكولونيالي بأخشاب بيضاء وزيتية أو ضاربة إلى الحُمرة، وأبواب شبكية حديدية، وأسيجة يكسوها اللبلاب تُحيط بحدائقها، وشاليهات طوبيّة أسقفها مائلة، وقصور ضخمة تحوّلت إلى سكن للطلّاب، وأشجار موز وجوز وكستناء عامرة بالسناجب، تُعيق أغصانها الوارفة أحياناً الحركة على دروب البلاط الرمادية الواقعة بين الرصيف والحدائق النيّقة.



إنها الثامنة من صباح الأحد والشوارع خاوية. خلال أول خمس دقائق من الركض، لم يرَ أحداً سوى شابّة تحتبي الأرض إلى جوار شجيرة نعمان في الحديقة الخلفية لـ«الكنيسة الأولى للمسيح العالِم»، لمّا انعطف يميناً عبر شارع «ماكولو». استدارت الفتاة، فكشفت ابتسامتها الورعة عن أسنانها. ظنّ ماريو أنه مُلزم بردّ تحيتها، فابتسم. تقاطع طريقه لاحقاً، وهو في شارع «بنسيلفانيا»، مع رجلٍ شعرُه شائب، يرتدي بنطالاً قصيراً وقميصاً أسود. كان يركض في الاتجاه المعاكس ولديه مشغّل شرائط متصل بسمّاعات ومُثبّت في حزام حول خصره. بدا من تعبيرات الرجل أنه يُركّز في الأزيز الصادر من هذه السمّاعات. بعدئذٍ، تقاطع طريقه مع شاحنة بريد، ومُسنّ أسود ذي خطوات هرمة وساقين مقوّستين يستند إلى عكاز، وشابّة ذات ملامح شرقية جادّة، وعائلة تتناول إفطارها بصخب تحت مدخل مسقوف، وسط ضحكات وتحذيرات أبويّة. بدت المدينة، حين سلك شارع «ويست أوريغون» وهو عائد، كأنها قد استعادت نبضها النهاري.

حينذاك تحديداً، التوى كاحله.

كان قد سارع خطاه في المنعطف الأخير من الطريق، بعد شعوره بالخفّة وتمكّنه من الحفاظ على إيقاع جيّد لتنفّسه. لمّا سلك «ويست أوريغون»، حاول أن يختصر المسافة بالقفز من فوق حوض لزهور الداليا، فسقط بشكل خاطئ، وصار ثِقل جسده كلّه فوق مِشط قدمه اليسرى. شعر فوراً بألمٍ حادّ، فحسِب أنّ قدمه قد انكسرت. خلع حذاءه الرياضي وجوربه، بصعوبة، وهو يجلس فوق العشب، وتحقّق من أنّ كاحله ليس متورّماً. هدأ الألم فوراً. قال ماريو لنفسه إنّ هذا الحادث، مع بعض الحظّ، لن يغدو شيئاً يُذكر. ارتدى جوربه وحذاءه الرياضي ونهض. سار بحذر، فشعر بالوخز يشقّ كاحله.

وصل إلى البيت وهو يعرج بشكلٍ واضح، فوجد السيّدة ووركمان عند المدخل المسقوف ومعها رجل.

قالت المرأة بصوت يشوبه الحذر وهي تُشير إلى كاحل ماريو: «ما الذي حدث لك، سيّد روتا؟ أنت تعرج!».

السيّدة ووركمان مُسنّة صغيرة البنيان. شعرها أبيض ومجعّد. يداها هزيلتان وعيناها ضاربتان إلى الخُضرة ومفعمتان بالحياة، وهي أيضاً صاحبة بيت ماريو.

قال ماريو وهو يمسك الدرابزين ليصعد سلّم المدخل المسقوف، من دون أن تتقدّم السيدة ووركمان أو الرجل لمساعدته: «الأمر ليس مهمّاً. التوى كاحلي بأغبى طريقة ممكنة».

قالت السيّدة ووركمان: «أتمنّى ألّا يصبح أمراً جسيماً!».

أجابها ماريو حين وصل إلى حيث يقفان: «لن يُصبح جسيماً».

غيّرت السيّدة ووركمان نبرتها: «أنا سعيدة بمقابلتك، سيّد روتا!».

قالت عبارتها وهي تمدّ له يدها، فشعر ماريو وهو يُحيّيها أنه يقبض على حزمة من العظام والجلد الناشف.

- دعني أقدّم لك السيّد بيركويكس. إذا لم يحدث أيّ طارئ، فسيصبح المستأجر الجديد للشقّة المقابلة التي شغلتها نانسي.

سألها ماريو: «هل رحلت نانسي عن البيت؟».

فأجابت السيّدة ووركمان: «عرضوا عليها عملاً في سبرينغفيلد، وهو عمل جيّد. أنا سعيدة من أجلها. إنها فتاة طيّبة. أحببتها كابنتي».

ثم أضافت بغموض: «أفترض أنك أيضاً ستسعد بانتقال نانسي إلى سبرينغفيلد».

سارع ماريو بالردّ: «بالطبع».

استأنفت السيّدة ووركمان حديثها وهي تنظر إلى المُستأجر الجديد بعينين تبحثان عن تأكيد لكلماتها: «في ما يتعلّق بالشقّة، أعتقد أنها أعجبت السيّد بيركويكس».

أومأ بيركويكس موافقاً: «بالتأكيد. أعتقد أنها ما أحتاج إليه بالضبط».

توقّف بعدئذٍ عن الكلام، ثم نظر إلى ماريو وأضاف: «أيضاً، أنا واثق بأنني قد عثرت على الجار المثالي».

أتى بيركويكس على ذكر عنوان المقال المتخصّص الوحيد الذي نشره ماريو في السنوات الثلاث الأخيرة في دورية «إيتاليكا». قال وهو يبتسم ويوجّه حديثه إلى السيّدة ووركمان، إنه هو وماريو زميلان يُجريان أبحاثاً عن شؤون ذات طبيعة متشابهة، وإنهما سيعملان من دون شك في القسم نفسه في الجامعة. لم تتمكّن السيّدة ووركمان من إخفاء رضاها بخصوص هذه المصادفة السعيدة، إذ أضاء مُحيّاها بابتسامة مندهشة. حينذاك فقط، أمعن ماريو النظر فعلاً في بيركويكس. إنه رجل طويل، ظهره عريض وجسده مصقول بشكل استثنائي. جلده مدبوغ بالشمس وعيناه صافيتان. لا تتعارض صلعته الناشئة الممتدّة في جبهته مع سيمائه الشبابية. يرتدي ملابس أنيقة من دون تكلّف. فضلاً عن ذلك، بدا مظهره كأحد رياضيّي الصفوة أكثر من كونه أستاذاً جامعيّاً، لكن ربما ثقته الصلبة بنفسه هي أكثر ما لفت الانتباه إليه، إذ كشفتها كل واحدة من إيماءاته، كأنه قد خطّط لها مُسبقاً، أو كأنّ الحاجة تحكمها.

استأنف بيركويكس حديثه بالنبرة الوديّة نفسها، على الرغم من أنها اكتست بالشرود: «افترضت أنّ الأستاذ سكانلان قد أعلن وصولي».

أكّد أنه قرّر في الشهر السابق قبول عرض الجامعة، وأنه جاء منذ أسبوعين فحسب لتوقيع العقد. أبدى ثقته من ناحية أخرى بأنّ سوء التفاهم سيتضح على الفور. مع ذلك، أكّد أنه ما من داعٍ أصلاً للتعجّب، فالعطلات الصيفية تُساهم بسهولة في وقوع هذه الفوضى. أخيراً، أبدى ابتهاجه من أنّ كلّ هذا أدّى بصورة ما إلى حدوث هذا اللقاء الذي تُضاهي مُتعته طابعه غير المنتظر.

أعقب بيركويكس هذه الكلمات بابتسامة صافية، فأبدت السيّدة ووركمان تشاركها لتفاؤل المستأجر الجديد بضحكة تشبه نقيق الدجاج، فأوحت للحظة بأنّ هيكل العظام والجلد الهشّ الذي يتشكّل منه جسدها سيتفكّك. شعر ماريو بالانزعاج، فكلّ

دماء أوردته خفقت في كاحله، فيما التصق قميصه المُبلّل بالعرق في صدره، وأحرقه إبطاه، كما أنّ ملامسة العشب أيقظت شعوراً بالحكّة في ساقيه.

أجبر ماريو نفسه على الابتسام وقال: «أنا واثق بأن كلّ الأمور ستتضح، وأنا سعيد بالطبع بأننا سنغدو جارَين».

لم تتحدّث السيّدة ووركمان أو بيركويكس، فافترض ماريو أنّ عليه أن يضيف شيئاً آخر، فابتسم مجدّداً وفتح ذراعيه في إيماءة اعتذار: «حسناً. الآن سأستحم!».

ثم أضاف وهو يوجّه حديثه إلى بيركويكس: «وستجدني في خدمتك في أيّ شيء تحتاج إليه».

أجابه بيركويكس: «شكراً. إذا كانت السيّدة ووركمان لا تمانع، فسأنتقل مساء اليوم. سأبلغك إذا احتجت إلى شيء».

قال ماريو: «اتفقنا. على كلّ حال، أفترض أننا سنلتقي غداً في القسم، وسيشهد منزل المدير حفل كوكتيل في المساء».

ردّ بيركويكس مبتسماً: «ممتاز. نلتقي غداً، واعتنِ بهذا الكاحل!».

اتفقت السيّدة ووركمان معه: «أجل. اعتنِ جيّداً بهذا الكاحل سيّد روتا، فأغبى الأمور تُعقّد الحياة أحياناً».

استحمّ ماريو حين وصل إلى بيته. أخرج بخّاخاً ودهاناً مضادّين للالتهابات من خزانة الأدوية، بعد أن فحص كاحله بعناية، واستعملهما فوق المنطقة المتورّمة. بعدئذٍ، حضّر إفطاره المكوّن من عصير درّاق وبيضٍ مخفوق مع لحمٍ مقدّد وخبزٍ محمّص وقهوةٍ بالحليب. تناوله بشهيّة وهو يستمع إلى الأنباء في المذياع.

غسل الأطباق وتوجّه لاحقاً إلى غرفة المكتب. بينما يجلس هناك، حرّر بعض الشيكّات لفواتير ماء وغاز وكهرباء متأخرة ووضعها في مظاريف مغلقة لإرسالها بالبريد. تفقّد بعدئذٍ منشورات إدارية خاصة بالجامعة والقسم. ألقى اثنين منها في سلّة المهملات، ثم رتّب بقيّتها في عدّة ملفات. دوّن في دفترِ المكالمات التي يجب عليه أن يجريها غداً من المكتب، ووضع الخطوط الأولية للمناهج التي سيُدَرِّسها غالباً في هذا الفصل الدراسي. أجّل التصميم المفصّل لكلّ واحدٍ منها إلى أن يصله تأكيد القسم. ستبدأ المحاضرات يوم الأربعاء، وإن جاء التأكيد، فسيخصّص يوم الثلاثاء لتحضيرها.

انتقل في الحادية عشرة والنصف إلى الصالون. شغّل أسطوانة وفتح عبوة بيرة وجلس بتراخٍ فوق المقعد المواجه للتلفاز وأشعل سيجارة، وهو يحاول تجاهل الخدر المزعج الذي يشعر به في قدمه.

حينئذٍ، فكّر في بيركويكس.

في البداية، شعر بالثناء من معرفته لمقاله؛ وهو المقال الوحيد الذي نشره منذ حاز على الدكتوراه، لكنّ الطابع السطحي لهذه الدراسة -وماريو أوّل المعترفين بالأمر- ومسألة نشرها في دورية ربع سنوية معدومة الصيت، دفعاه إلى إعادة التفكير في المسألة لاحقاً. تمكّن فقط من التوصّل إلى افتراضين يفسّران تَبَحُّر بيركويكس المثير للفضول: إما أنه عمل مؤخراً في الاتجاه نفسه الذي تناوله مقاله، فشعر بأنه مُلزم باستقصاء كلّ ما نشر حول هذا الموضوع في الفترة الأخيرة، مهما كان غثّاً أو معيباً، وإما أنه ينتمي إلى سلالة الباحثين النادرة التي تقرأ الدوريات المنتظمة باجتهاد

متأنٍّ وتواكب الأبحاث التي يشهدها حقلهم الدراسي، من دون أيّ منفعة فورية سوى المتعة الفكرية وإرضاء الفضول. استبعد ماريو فوراً هذا الظن الثاني؛ ليس فقط لأنه لا يتفق مع الانطباع الذي خلّفه بيركويكس داخله، بل لأنه كان سيعني من دون شك أنّ المستأجر الجديد قامة ذائعة الصيت في المجال، على الرغم من حقيقة أنّ اسمه لم يبدُ مألوفاً له. هكذا، أراحه هذا الاستنتاج.

على كلّ حال، لم يكن ثمّة مجالٌ لأدنى شك في أنّ بيركويكس على دراية بالطابع الفكري المتدنّي لبحث ماريو، إلا في حالتين فقط: أنه يعرف عنوانه فحسب، أو أنه قد تصفّحه من دون إمعان ولم يخلص إلى فقر محتواه. مع ذلك، لم تُقلق ماريو هذه المسألة، لأنها حتى لو جعلت وضعيّته مُزعجة نوعاً ما أمام بيركويكس، فإنّ هذه الوضعية لن تكتسب هذه الصفة أصلاً، ما دام زملاؤه في القسم ومن ضمنهم سكانلان -الذي فعلاً لا تقل لأحد غيره- لم يقرؤوا المقال قطّ، كما لم يقرؤوا أيّاً من المقالات التي نشرها سلفاً، ولن يقرؤوا على الأرجح المقالات التي سينشرها مستقبلاً. بالتالي، ليس لديه ما قد يقلق منه. علاوة على ذلك، فليس مُستبعداً وفقاً للاستدلالات السابقة، أنّ بيركويكس مجرّد مبتدئ في هذه المهنة، ومن هنا ثمّة مجالٌ لتمنّي أن يكون عمله بدائيّاً أو مفتقراً إلى النضج أو متواضعاً بشكل ملموس، كحال بحثه. إن أُضيفت أيّ واحدة من هاتين الاحتماليتين إلى معرفة ماريو بالقواعد المُعلنة والخفيّة التي تُدير القسم، فهو في وضعية مريحة أكثر من بيركويكس.

نهض عن المقعد وغيّر الأسطوانة وجلس مجدّداً. أخذ رشفة كبيرة من البيرة وأشعل سيجارة أخرى. حينئذٍ، حاول أن يتوقّع التبعات الفورية التي قد تنجم عن وصول بيركويكس. كان ماريو، وفقاً لعقده، يُدرِّس علم النُّطقيّات لصفّين في نصف العام الدراسي الواحد. مع ذلك، فعلى أرض الواقع، لطالما درّس لثلاثة صفوف ووصل راتبه السنوي إلى مبلغٍ مُرضٍ. بخلاف هذا، كان قد توصّل سلفاً إلى اتفاق تكتيكي يُمكنه بمقتضاه أن يُدرّس لصفٍّ في تخصص آخر سواء علم الدلالة أو النحو أو الصرف، في حالة عجز القسم عن جذب عددٍ كافٍ من الطلّاب لتشكيل ثلاثة صفوف. يعني هذا أنه يضمن التدريس لثلاثة صفوف في كلّ الأحوال تقريباً. لا يُمكن لوجود بيركويكس داخل هذا الإطار أن يُغيّر الأمور بشكل جوهري. وصل هذا الأستاذ

الجديد منذ وقت قليل، ولهذا السبب تحديداً سيحظى بحقوقٍ أقلّ، لأنّ خبرته أصغر وسيرته الذاتية أضأل. على الأرجح، سيُدَرِّس لأحد صفوف النطقيّات التي تخصّ ماريو عادةً، وسيُكمل عمله بالتدريس لأحد الصفوف المتبقية من التخصّصات الأخرى، أما ماريو نفسه فسيُضيف إلى صفّيه بلا شك واحداً ثالثاً إما في علم الدلالة أو النحو أو الصرف -هذا دون الحديث عن احتمالية تدشين فصلٍ رابع في علم النطقيّات، كما حدث في النصف الأول من العام الماضي- أو عملاً إدارياً، وهو أكثر ما يفضّله. بهذه الصورة، لن يتراجع دخله مع وصول بيركويكس، بل إنّ هنالك فرصة للاستفادة منه أصلاً.

عقب هذه السلسلة من الخواطر التافهة، تبدّد القلق المبهم الذي استشرى داخل ماريو من الطابع المتفائل الصحّي ذي الحضور الطاغي الذي أظهره المستأجر الجديد عند المدخل المسقوف، بل وتحوّل إلى أحد أشكال الشفقة التي لا تخلو من التعاطف؛ ومع أنّ ماريو لم يُخادع نفسه، وعلم أنّ وجود بيركويكس قد يمثّل تهديداً لخصوصيته -لأنه اعتبر دائماً أنّ الفصل بين عمله وحياته الخاصة أمرٌ لا غنى عنه للوصول إلى وضعية اقتصادية مناسبة وحيوية- فإنّ شيئاً لم يدفعه إلى قبول أنّ ذلك الوجود قد يُمثّل سبباً كافياً لإزعاجه، أو لإجباره، في المقام الأخير، على التفكير في احتمالية الانتقال إلى شقة أخرى، خاصة أنّ هذه التي يشغلها الآن تُرضيه من كلّ وجهات النظر. لا يرتبط الأمر فقط بأنها تقع في منطقة سكنية لطيفة وقريبة بصورة نسبية من الحرم الجامعي، وإنما أيضاً بسبب مدخلها المسقوف وحديقتها الخلفية والمرأب، وتمكّنه من تأثيثها على ذوقه بعد جهدٍ استمر طيلة عامٍ من السكن.

تتكوّن الشقّة من غرفة مكتب وغرفة معيشة وغرفة نوم ومطبخ وحمّام. تضمّ غرفة المكتب، بخلاف الآلة الكاتبة والكمبيوتر، طاولةً من خشب البلّوط الأسود مزوّدة بأدراج من الجانبين يستخدمها أحياناً كمكتب، وخزانة ملفّات معدنية وعدداً من الأرفف، ومتكأ ومقعد صالون وبعض المقاعد العادية. أمّا غرفة النوم، فأثاثها قليل، إذ تحتوي على خزانتَي ملابس طُعِّمت أبوابهما بمرايا عمودية تقعان في جوف الجدار الواقع في نهايتها، وأيضاً على كومودا من الخشب الأبيض إلى جوار الجدار الأيمن، أمامه فراش مُغطّى بلحاف أحمر رُمّاني. يقسم امتدادٌ في الجدار

غرفة المعيشة إلى نصفين. يضمّ الجانب الأيسر مائدةً من الخشب الأبيض تحوطها مقاعد معدنية، فيما تتدلّى من جدرانه لوحاتٌ ذات طابعٍ تكعيبي مُبهم، وإعلان عن معرض لأعمال تولوز لوترك، في إحدى صالات عرض تورينو. في المنطقة اليمنى، يظهر تلفاز ومشغّل أسطوانات وأريكة كريمية اللون، ومقعدان بالدرجة نفسها، لكنّ تصميمهما مختلف، وطاولة صغيرة شفّافة قصيرة مكوّنة من جزأين يُمكن للمرء أن يرى من نصفها العلوي جرائد وكتباً ومجلّاتٍ مصفوفة فوق نصفها السفلي، وهنالك أيضاً لوحةٌ معلّقة بمسمارٍ معقوف في الجدار هي في الأصل نسخة عادية الحجم من إحدى لوحاتِ هوكني. بين طرفَي الغرفة، ثمّة خزانةٌ زجاجية ملآنة بأغراض متنوّعة القيمة: فيل من العاج، ونرجيلة جزائرية، وساعة رملية، وثلاثة مسدّسات عتيقة، وزجاجة من نبيذ «كيانتي» داخلها فرقاطة مصغّرة، وعدّة تماثيل فخارية، وبعض الأغراض التافهة التي جمعها ماريو على مرّ السنين، من دون حماسٍ عاطفيّ، ومن دون التعطّش الخاص بهواة الاقتناء. تكتسي جدران البيت كلّه، باستثناء المطبخ والحمّام، بالخشب المعرّق، فيما دُهنت نعول الجدران وأُطر الأبواب والنوافذ بالأبيض.

لا يمكن لأيّ شقة أن تُرضيه بصورة أكبر. لهذا اعتبر ماريو أنّ التفكير أصلاً في احتمالية تركها، لمجرّد أنّ زميلاً في العمل قد صار جاره فجأة، محضُ حماقة. فكّر بتفاؤل: «أيضاً، يصعب تخيّل أن أخسر مع هذا التغيير». لا مجال للشكّ في أنّ نانسي كانت جارةً مزعجة على أقلّ تقدير، فهي امرأة مهملة في مظهرها، وبدانتها فوضوية. شعرها جافّ ويشبه القشّ. قبيحة بوضوح، لكنّها تتمتّع في الوقت ذاته بجنسانية واضحة بقدر عدائيّتها. لم يسهل التعايش السلمي بينهما في البيت بسبب أفكارها النسوية وأحكامها المسبقة عن الرجال اللاتينيّين التي أتت على ذكرها في كلّ حوارٍ بينهما مهما كان عرضيّاً أو مقتضباً، سواء حدث هذا على الدّرج أو أثناء إخراج القمامة أو غسل السيارة. علاوةً على ذلك، تُرجمت المودّة الغريبة التي كنّتها السيّدة ووركمان لها إلى ثقةٍ عمياء بها، وهي مسألة لم تتوقّف عن إزعاج ماريو. لم تضعه جارته في أزمة كلّما اتهمته بالثمل بمفرده فحسب، وإنما أيضاً حينما اشتكت للسيّدة ووركمان من أنه يتلصّص عليها كلّما دخل رجلٌ إلى شقّتها، وبالأخصّ ليلاً. ذات مرّة،

اضطرّت السيّدة ووركمان وبقيّة مستأجري العقار -وهم زوجٌ وزوجة من بلجيكا، وشابّة تعمل في مكتب القبول في الجامعة- إلى التوسّط لدى نانسي لكيلا تُقدّم بلاغاً رسميّاً ضدّه في الشرطة بتهمة الاعتداء الجنسي، إذ أكّدت أنها ضبطت ماريو وهو يستمني واقفاً وراء ستارة غرفة المعيشة، أثناء تشمّسها فوق كرسيّ للاسترخاء في الحديقة الخلفيّة.

- جينجر؟ أنا ماريو!

سألته جينجر: «كيف حالك؟».

لم تنتظر إجابته وسألته ثانيةً: «متى عدت؟».

أجابها ماريو: «منذ يومين. لم أتصل بك لأنني كنت أرتّب أموري. أنتِ تعرفين».

- أجل.

فكّر ماريو: «ينطفئ الناس مع الهاتف». بدا صوت جينجر محايداً وباهتاً.

قال: «هل تودّين أن نتناول الغداء معاً؟».

- لا أعرف.

أصرّ ماريو: «في مطعم تيمبونيز. لنحتفل بلمّ شملنا!».

كرّرت جينجر عبارتها: «لا أعرف».

فأصرّ ماريو ثانية.

ساد الصمت برهة. تقاطع صوت محادثة بعيدة مع المكالمة، ثم سمعها ماريو تقول: «اتفقنا».

- إذاً، نلتقي في «تيمبونيز» في ظرف ساعة!

أنهى المكالمة، ثم نظر إلى الساعة. إنها الثانية عشرة.

وصل إلى المطعم في الواحدة إلا خمس دقائق. وجد جينجر جالسة إلى إحدى الطاولات الواقعة في نهايته أمام النوافذ الكبيرة التي تُضيء قاعته. ارتدت فستاناً أزرق فاتحاً من قطعة واحدة، وعقصت شعرها في ضفيرة مثالية فوق رقبتها. فكّر ماريو وهو يُحرّك المقعد ليجلس: «إنها مثالية».

سألته جينجر: «ما الأمر؟ إنك تعرج!».

قال ماريو وهو يبتسم كأنه يعتذر: «الأمر وما فيه أنّ كاحلي قد التوى اليوم وأنا أركض».

- أتمنّى ألّا يصبح أمراً جسيماً!

- لن يصبح جسيماً.

طلبت جينجر شريحة لحم باردة مع الأرزّ، فيما طلب ماريو سلطة ودجاجاً بالكاري، وشربا نبيذ «بورغوندي».

- لا تبدين سعيدة بعودتي.

اعترفت جينجر: «لا أعرف حقّاً ما إذا كنت سعيدة».

ثم سألته: «كيف قضيت وقتك؟».

قال ماريو وهو يحدّق إلى الدجاج: «شعرت بالملل. حين بدأ الأسبوع الثاني، لم أعد أعرف ماذا يجب أن أفعل».

ظلّا يتناولان طعامهما في صمت. جاء النادل مرّتين لاستقصاء ما إذا كانا في حاجة إلى أيّ شيء وما إذا كان الطعام يرضيهما. أومأ كلٌّ منهما من دون حماس برأسه. سألها ماريو، على الرغم من أنه عرف الإجابة: «كيف سارت الأمور هنا؟».

قالت جينجر: «كعادتها. كلّ الأمور هادئة، بل في الواقع، هادئة أكثر من اللازم. لم يبقَ أحدٌ تقريباً ليتحدّث المرء معه».

تكهّن ماريو: «لا بدّ أنكِ عملتِ كثيراً».

ظلّت جينجر في الجامعة طيلة الصيف لتواصل العمل على أطروحتها. أجابت ماريو برفع كتفيها وإيماءة تنمّ عن الإنهاك، ثم قالت: «أفترض أنني عملت أكثر من اللازم وفي اتجاهات كثيرة، لكنني لست متيقّنة من أيّها أصوَب».

فكّر ماريو في أنّ تعبيرات جينجر صارت الآن كئيبة وجامدة، كما حدث سلفاً حين

سمع صوتها في الهاتف. تحدّثا بخصوص النقاط التي اقترح عليها ماريو فحصها في غيابه. اقتصر ما فعلته جينجر على الإجابة عن أسئلة ماريو بكلمات أحادية المقاطع. ذات لحظة بدت أساريرها كأنها تنفرج، فقالت كأنها تترك شيئاً وراءها: «الأمر ليس مهمّاً. سأتحدّث غداً مع بيركويكس».

- مع من؟!

كرّرت جينجر وهي تنظر إلى عينَي ماريو: «مع بيركويكس. تمكّنوا أخيراً من التعاقد معه. وضع شروطاً كثيرة على ما يبدو. أنت تعرف كيف هم هؤلاء القوم. على كلّ حال، نجح سكانلان في المسألة. أصرّ على الأمر كثيراً وحقّقه. أخبرني برانستاين بأنه سعيد جدّاً».

رفع النادل أطباقهما وسألهما ما إن كانا يودّان طلب الحلويات. طلبت جينجر فطيرة التفاح، ورفض ماريو عرضه، ثم أشعل سيجارة.

قالت جينجر: «لكنني ظننت أنك تعرف بأمر بيركويكس».

قال ماريو وهو ينفث حلقة دخان من فمه: «لم أعرف».

- أنا واثقة بأنّ الحديث عن المسألة بدأ قبل ذهابك إلى العطلة.

قال ماريو مجدّداً: «لم أعرف».

خلصت جينجر: «لا فارق. الأمر وما فيه أنّ الكلّ سيظفر مع مجيئه، وخصوصاً أنا».

أكّدت جينجر أنّ المقال الأخير لبيركويكس، «إعراب تشديد الحرف الصامت الأول في الإيطالية»، الذي نشرته دورية «لانغويدج» في شهر أبريل من العام الجاري، قد ترك البحث مفتوحاً في النقطة نفسها التي بدأت هي عندها. قالت إنها متأكّدة من أنّ بيركويكس واصل عمله في الاتجاه نفسه، وأنه سيُظهر من دون شكّ -حتى وإن لم تصحّ توقّعاتها- اهتماماً برسالتها، وسيُسارع طبعاً لتقديم العون لها. أكّدت مجدّداً أنها ستتحدّث مع بيركويكس في اليوم التالي، وأنها قد تقترح عليه أن يشرف على رسالتها إذا سارت الأمور كما تنتظر، خاصةً أنّ الكلّ أكّد لها أنّ بيركويكس رجلٌ

بشوش ومجتهد ومتحمّس، ولأنها تثق بأنّ ماريو لن ينزعج إن تخلّى له عن إشرافه على الرسالة.

أنهت حديثها بتضييق عينيها وهي تتظاهر برسم تعبير يريد أن يبدو خبيثاً أو حالماً: «أيضاً، تخيّل فقط: إشراف شخص مثله على رسالتك يبدو أمراً جيّداً على الدوام».

فقد ماريو تركيزه. لم يفهم لماذا لَم يُخبر جينجر بعدُ أنّ بيركويكس قد استأجر للتوّ شقّةً في البيت نفسه الذي يسكنه. كذلك، لم يجد تفسيراً لقدرة جينجر على إهانته بهذه الطريقة، بل وتسليمها بأنه لن يأبه، لانعدام كفاءته تقريباً، بالتنازل عن دور المشرف على رسالتها -مهما بدا هذا المنصب تافهاً أو صوريّاً- لصالح بيركويكس، الذي يبدو أيضاً أنّ له قيمة فكرية راسخة في المجال. مع ذلك، فأكثر ما أدهشه، هو عدم تعرّفه على العنوان الذي أتت جينجر على ذكره، وإن كان هذا الاندهاش ربما مجرّد آلية غريزية للدفاع. بدا له مستحيلاً ربط اسم بيركويكس بأيّ شيء يتصل أصلاً ولو من بعيد بأبحاث علوم النطقيّات. لكن ما أذهل ماريو فعلاً هو رباطة الجأش التي تعامل بها مع الوضع: لم تبدر منه أيّ إيماءات للاعتراض أو الجزع أو التوتّر، تماماً كما يحدث للمرء داخل حلم حين يدرك أنه نائم، فيفتقر كلّ شيء إلى الأهمية إلا يقينه من أنّ شيئاً لن يقدر على إيذائه، وأنه ذات لحظة سيستيقظ وسيتلاشى الحلم كدخان وسط الهواء من دون أن يترك أثراً واحداً.

بعدئذٍ بلحظة، تفهّم ماريو أنّ جينجر ظلّت تتحدّث من دون أن يُوليها أدنى اهتمام وهو منغمس في مهمّة تشكيل حلقات الدخان. افترض وهو منهَكٌ نوعاً ما أنها تحدّثت مع بيركويكس عن الرسالة وعن نفسها وربما عنه. حاول تغيير دفّة المحادثة بالسؤال عن بعض الأصدقاء المشتركين، وأبوَي جينجر اللذين زارتهما قبل بضعة أيام، وعن مستجدّات القسم، لكنّ الحديث تهاوى في النهاية، فدفعا الحساب وخرجا.

أثناء وقوفهما على الرصيف، عند باب المطعم، لاحظ ماريو أنّ كاحله يُؤلمه.

قال: «لديّ أمور يجب أن أفعلها الآن، لكن ما رأيكِ أن نشرب كأساً في بيتي الليلة».

اعتذرت جينجر، ربما من دون أن تشعر بإحساس الاعتذار فعلاً: «آسفة. وعدت بريندا بأننا سنذهب معاً إلى السينما».

بريندا هي رفيقة سكن جينجر. سأل ماريو عنها لتخفيف حدّة الرفض، فحكت جينجر أنها عادت للتوّ من كاليفورنيا حيث قضت أسبوعين.

اقترح عليها ماريو من دون قناعة كبيرة: «يُمكنكما أن تذهبا إلى السينما في يوم آخر».

ثم كذب عليها: «أحتاج إلى أن أتحدّث معك بخصوص أمرٍ ما».

قالت جينجر: «ربما في يومٍ آخر. الأمر غير ممكن اليوم».

استسلم ماريو: «حسناً. أراكِ غداً!».

أجابته بالإيجاب بغموض: «أجل».

أثناء ابتعاد ماريو نحو السيارة أضافت وهي ترفع صوتها: «اعتنِ بكاحلك يا ماريو، فأغبى الأمور تعقّد الحياة أحياناً!».

ففكّر ماريو: «كلّ شيء يتكرّر».

لم يتوجّه إلى البيت وإنما إلى المستشفى. ركنَ سيارته في ساحة أسفلتية يحوطها العشب، وفيما يستعدّ للدخول إلى المبنى عبر بوّابته الرئيسية، انتبه إلى أنّ أحداً يُلقي عليه التحيّة. غيّر اتجاهه واقترب من نافذة السيارة التي هزّت منها شابّةٌ جاحظة العينين يديها.

قالت الشابّة حين أصبح ماريو على بعد عدّة أمتار منها: «عذراً، ظننتك شخصاً آخر!».

فكّر ماريو: «يا له من أمرٍ غريب!».

دخل المستشفى. عثر في نهاية ممرٍّ جدرانه شديدة البياض على قاعةٍ تضمّ صفوفاً متعدّدة من المقاعد، وبعض السجاجيد، ونضداً تجلس وراءه ممرّضة لها وجهٌ محمرّ ويدان مكتنزتان. انتظر أن تفرغ الممرّضة من الردّ على مكالمة هاتفية، وهو يستند بكوعه إلى النضد ليُخفّف من ألم كاحله. لمّا أغلقت الخطّ، شرح لها ماريو المشكلة. طلبت منه أن يملأ استمارة، ودَعته كي ينتظر عند صفوف المقاعد المواجهة للنضد. جلس ماريو فوق مقعد وظلّ يتصفّح أعداداً قديمة من مطبوعات «نيوزويك» و«ديسكڤري» و«تراڤيل أند ليجر». لاحظ مرّتين، من دون تركيز كبير، أنّ الممرّضة أطلّت من وراء النضد لتنظر إليه، فابتسم، لكنّ الممرّضة غاصت مجدّداً داخل مغارتها. سمعها تتحدّث عبر الهاتف، بصوتٍ خافت. هُيِّئَ له أنه سمع اسم بيركويكس في إحدى المرّات. فكّر وعلى وجهه تعبيرٌ يُشبه الابتسام: «إنه أمرٌ لا يُصدَّق. سأغدو مهووساً في نهاية المطاف». نهض بعد برهة من مقعده وذهب إلى النضد. سأل الممرضة ما إذا كانوا سيستغرقون وقتاً طويلاً ليهتمّوا به، فأجابته الممرّضة بحدّةٍ واضحة، بل وربما ببعض الغضب: «لا!». نهضت واختفت خلف الباب الخلفي المفتوح وراء مغارتها. بينما يعود ماريو إلى مقعده وهو يعرج، فكّر في أنه لم يرَ أحداً منذ دخل إلى المستشفى باستثناء الممرّضة ذات الوجه المحمرّ. لم يرَ أطبّاء أو مرضى أو ممرّضاتٍ أخريات. حينئذٍ، وكأنّ أحداً قد قرأ أفكاره وأراد تهدئته، سمع اسمه ووجد عند الجانب الآخر من القاعة ممرّضة تدعوه إلى أن يأتي وراءها.

دخلا غرفة تفوح برائحة النظافة واليود والضمادات. وجّهته الممرّضة كي يخلع حذاءه وجوربه من قدمه اليسرى ويرقد فوق الفراش الموجود في منتصفها. بعدئذٍ فحصت كاحله المصاب الذي أظهر تورّماً كبيراً. نهض ماريو مستنداً إلى كوعه، حين حسب أنّ الممرّضة تُداعبه. لاحظ أنها شابّة وجميلة. وضعت الممرّضة يدها على صدره واقتربت من وجهه بابتسامة عجز عن تفهّمها.

وأعلنت: «سيصل الطبيب فوراً».

في الوقت نفسه، كشفت حزمة الضوء المنحرف التي سقطت فوقهما عن طيف لشعيرات تُلطّخ الجزء العلوي من شفتَيها.

دخل الطبيب بعد بضع دقائق. إنه رجلٌ شرقيّ شاحب ضئيل الحجم. تحرّك بصورة غريبة تتمازج فيها العصبية مع الدقّة. حيّا ماريو بمودّة وحاول أن يمزح بخصوص فوائد الرياضة. قال ماريو إنه على الأقل قرأ الاستمارة التي سلّموها له في قاعة الاستقبال. تمتم الطبيب وهو يفحص الكاحل عن مسافة شديدة القرب وهو يحاول على ما يبدو أن يفكّ شيفرة هذا النتوء اللحمي الذي يحوطه: «مممم!».

راقبتهما الممرّضة، وهي تبتسم، من على مسافة معقولة.

ضغط الطبيب فوق قدمه في عدّة نقاط وهو يمعن نظره، فضاقت عيناه حتى صارتا شقّين، ثم سأله وهو يضغط بإصبعه فوق الجزء السفلي من الكاحل: «هل يؤلمك؟».

اعترف ماريو متململاً بعض الشيء: «جدّاً!».

بل وأوشك على أن يقول: «لو لم يؤلمني، لما جئت إلى هنا».

تمتم الطبيب مجدّداً: «مممم».

سأله ماريو: «هل الوضع خطير؟».

أجابه الآخر وهو ينتصب وينظر إلى عينيه، فإذا بالشقّين يتحوّلان إلى شكلين بيضاويين خضراوين: «لا أظنّه خطيراً. لا يوجد كسر. إنه مجرّد التواء!».

أراد ماريو أن يسأله شيئاً، لكنّ الطبيب التفت نحو الممرّضة التي ظلّت بابتسامتها الهادئة نفسها. قال لها بعض التعليمات التي لم يتمكّن ماريو من سماعها، ثم خرج من الغرفة.

بدأت الممرضة تُضمّد قدمه. لمّا انتهت من تثبيت الجبيرة بقطعة من الشريط اللاصق، ظهر الطبيب مرّةً أخرى.

قال: «ممتاز!».

- كم من الوقت سأضطرّ إلى الإبقاء عليها؟

أجابه الطبيب بغرابة: «لا أعرف. أسبوع. ربما أكثر. الأمر نسبيّ».

- بمعنى؟

كرّر الطبيب إجابته: «لا أعرف. عُد في غضون أسبوع».

- أفترض أنه يُمكنني أن أسير.

أجابه الطبيب: «بالطبع. ستوفّر لك الممرّضة عكازاً كي يُساعدك، لكن عِش حياتك بصورة طبيعية، مع تجنّب أيّ مجهود غير مُجدٍ بالطبع. كلّما قلّلت الحمل على كاحلك، صار الأمر أفضل».

طلب ماريو سيارة أجرة من عند المدخل، ثم رافقته الممرّضة حتى الباب. توقّفت السيارة عند الساحة الأسفلتية، فابتسمت المرأة وقالت: «لا تهتمّ بكلام الطبيب، عُد وقتما شئت!».

ففكّر ماريو، من دون سبب واضح: «هذا أفضل».

وصل ماريو إلى الولايات المتحدة في أغسطس من عام ألفٍ وتسعمئة وواحدٍ وثمانين. كان قد حصل على منحة من الحكومة الإيطالية تسمح له بإنهاء رسالة دكتوراه في اللغويات من جامعة تكساس، في أوستن.

لم تكن شهوره الأولى في بلده الجديد ممتعة. إما أنه لم يرغب وإما أنه لم يتمكّن من عقد أيّ صداقات، إذ شقَّ عليه أن يتخطّى حدود العلاقة النفعية المحضة مع الأميركيّين، وأغلبهم شباب من الجنوب. أمّا الأوروبيّون الذين حظي بفرصة للتعامل معهم، فبدوا له من دون استثناء قوماً تافهين يفتقرون إلى أدنى عوامل الجذب. لم يعمل تقريباً، مع أنه حظي بالوقت والوسائل المناسبة لتحقيق الأمر. إذ انشغل بتمضية وقته في دور السينما الموجودة في المدينة وقراءة الجرائد ومشاهدة التلفاز وانتظار عطلة عيد الميلاد. لمّا جاءت، عاد ماريو إلى تورينو.

لم يؤمن طيلة حياته بأنّ ثمّة صلةً خاصة تربطه ببلاده، لكنّه حين عاد إلى إيطاليا تفهّم أنه ما من رابطٍ خاصّ يجمعه بأيّ مكان آخر غيرها، فشعر بالسعادة.

لمّا عاد إلى أوستن بعد العطلة، كان قد قرّر أن يتنازل عن المنحة في الصيف، وأن يعود إلى إيطاليا نهائيّاً.

حينذاك، تعرّف إلى ليسا.

بلغ عمر ليسا آنذاك سبعة وعشرين عاماً. كان شعرها أسود وناعماً ولامعاً، ولها عينان عذبتان وتقاسيم مرسومة، كأنها منحوتة بإزميل فوق مُحيّاها. سارت بخطوات قصيرة وسريعة وشفّت كلّ إيماءاتها عن رغبةٍ حديدية، لكنّ أكثر ما لفت الانتباه إليها، وسط إهمال الهندام الذي سيطر على الحرم الجامعي، هو عنايتُها الفائقة، شبه التّرِفة، بهيئتها. اعتادت أن تطلي شفتيها مرّةً تلو الأخرى بدقّة، فيما شكّل حاجباها دائماً خطّين مثاليّين.

على الرغم من أنّ أحداً لم يُقدّم أيّاً منهما إلى الآخر، لطالما تبادل ماريو وليسا التحيّة كلّما التقيا في الأروقة أو على السلالم أو عند مدخل بناية العلوم الإنسانية.

هكذا شرعا يتحدّثان فوراً، حين دعاهما أستاذ التاريخ إنزو بونالي، الذي تعرّف إليه ماريو بالمصادفة وأشرف على رسالة دكتوراه ليسا، إلى إحدى الحفلات. وفيما كان يلوذ بنفسه وسط الكوكتيلات والأرائك، لأنه لم يعرف أيّاً من المدعوين، ابتهج ماريو لمّا رأى ليسا تدخل إلى الحفل، فاقترب منها فوراً.

تحدّثا طوال الليل. حكت له ليسا أنها ولدت في نيويورك، لكنّها قضت أغلب حياتها في سان دييغو، وأنها تعمل مع بونالي على رسالة الدكتوراه التي تتناول شأناً معيّناً يرتبط بتوحيد إيطاليا. قال ماريو إنه ينوي العودة إلى إيطاليا صيفاً. أكّد ضاحكاً أنّ الولايات المتحدة لا تروقه، فاعترفت ليسا أيضاً بأنها لا تروقها هي أيضاً، لكنّها ألمحت إلى أنّ عدم استغلال الفرص التي تقدّمها سيُعَدّ خطأً. مع انتهاء الحفلة، عرضت ليسا توصيله إلى بيته.

بعد يومين خرجا لتناول العشاء معاً.

لم يعد ماريو إلى إيطاليا في الصيف، إذ بدأ يعمل على رسالته بعد أن شجّعته ليسا. فكّر في أنّ العطلة قد تكسر إيقاع عمله من دون داعٍ. لم يسمح لنفسه سوى بأسبوعٍ من الراحة في نيو أورلينز، في صحبة ليسا.

قدّم رسالته بعدئذٍ بعامين ونصف العام، وفعلت ليسا الأمر نفسه قبله ببضعة شهور. طلب كلاهما شغل منصب أستاذ في جامعات أميركيّة متنوّعة. حصل ماريو على عدّة ردود، لكن لم يصله أيّ تأكيد، أما ليسا فتلقّت ثلاثة عروض. بعد أن تشاورت مع ماريو، قبلت عرضاً من جامعة براون. ليس لأنه الأفضل، وإنما لأنّ الجامعة تعهّدت بتوظيف قرين الأستاذ المُعيّن.

تزوّجا في يوليو، وسافرا عبر إيطاليا في شهر أغسطس، ثم عادا إلى الولايات المتحدة قبل انطلاق العام الدراسي الجديد بالضبط.

تفهّم ماريو أنّ زواجهما فاشل قبل مرور عام. ذات ليلة، بعد أسبوعين من المشاجرات وفترات من الصمت المزعج، خرج ماريو وليسا لتناول العشاء. ذهبا بعدئذٍ إلى السينما. لمّا عادا إلى البيت جلسا في الحديقة ودخّنا في صمت. كانت

إحدى ليالي الربيع الصافية، لكنّ نسيمها اعتلّ برائحة الصيف، وامتلأت السماء بالنجوم. قالت ليسا فجأة: «ماريو، لقد انتهينا».

وتطلّقا صيفاً.



في اليوم التالي، استيقظ ماريو في الثامنة. استحمّ وهو يلفّ قدمه اليسرى في حقيبة بلاستيكية، ثم تناول إفطاره وطلب سيارة أجرة عبر الهاتف.

وصل في التاسعة والنصف إلى «مبنى اللغات الأجنبية»، وهو يحمل حافظة جلدية في يده اليسرى، ويستند إلى عكاز في يده اليمنى. لمّا عبر قاعة استقبال المبنى، لاحظ أنّ ساقه المضمّدة وطريقة سيره غير المستقرّة تلفتان الانتباه أكثر مما توقّع، فشعر بالانزعاج.

صعد بمفرده في المصعد. لمّا وصل إلى الطابق الرابع، سار إلى مكتبه، لا إلى المكتب المركزي للقسم. ابتهج حين لم يلتقِ أحداً في الممرّ. على الرغم من علمه أنه سيقدّم تفسيرات بخصوص ما حدث لكاحله، فإنه توعّك من مجرّد التفكير في الأمر. استغرق لحظةً ليُصيب في إدخال المفتاح في القفل وفتح الباب، لكنّه لم يفتحه بالكامل، إذ أغلقه غريزيّاً حين لاحظ نوراً مضاءً داخله.

وبينما يُغلقه اعتذر: «آسف!».

قال لنفسه: «يا له من أمرٍ غريب، لم أخطئ في مكتبي قطّ!». فكّر فوراً بصورة عقلانية: لا يُمكن لمفتاح مكتبه أن يفتح سوى مكتبه، فنظر إلى رقم المفتاح والباب. إنهما الرقم نفسه: 4043. بينما يستعدّ لإدخال المفتاح مرّة أخرى في القفل، إذا بالباب ينفتح هذه المرّة من الداخل وبطيف بيركويكس يتراءى عند إطاره.

تعجّب بيركويكس مبتسماً: «يا للمصادفة! يبدو أنه قد كُتب علينا أن نلتقي بصورة غير متوقّعة تماماً».

أشار بعدئذٍ إلى الجبيرة البيضاء التي تكسو ساق ماريو والعكاز الملتصق بإبطه الأيمن، وسأله: «لكن يا رجل! ما الأمر مع كاحلك؟!».

تمتم ماريو بصورة خرقاء: «لا بدّ أنّ ثمّة خطأ».

لاحظ على الفور عدم اتّساق ملاحظته.

استمرّ بيركويكس في حديثه، كأنه لم يسمع ما قاله ماريو: «أنا متأكّد من أنّ الأمر لن يصبح جسيماً. مع أنّ المرء لا يعرف حقاً ما قد يحدث مع هذه الأشياء».

فكّر ماريو: «الآن سيقول إنّ أغبى الأمور تعقّد الحياة أحياناً»، ثم قال مجدّداً: «لا بدّ أنّ ثمّة خطأ».

قال بيركويكس ربما بعد أن تفهّم، والتفت ليفسح طريق الدخول إلى المكتب: «آه. نعم. لا بدّ أنّ هنالك خطأ بالطبع، فهذا المكتب كالقمامة! أتفهّم أنّ من شغله قبل وصولي أحدُ هؤلاء الإسبان الذين يتحمّمون مرّةً واحدة في الأسبوع، ويتركون أثر قذارتهم حيثما ذهبوا!».

ثم أكّد وهو يفتح ذراعيه في إيماءة تسعى لأن تتسع للمكتب بأكمله: «هنا كلّ شيء موجود: علب بيرة وعبوات لبن ومنافض ملآنة بأعقاب سجائر، بل وحتى ثلّاجة صغيرة فيها قطعة جبن متعفّنة، وأوراق مُلقاة في كلّ الأنحاء. يجب أن أبحث عن أحدٍ لمساعدتي في تنظيف كلّ هذا. لن أقدر بمفردي».

قال ماريو: «سأتحدّث مع السكرتيرة».

فأجابه بيركويكس: «شكراً جزيلاً يا ماريو، لكنني أظن أنّ المسألة لا تستدعي إزعاجك. لا أظن أنّ السكرتيرة قادرة على مساعدتي. لاحظت أنها مشغولة جدّاً».

حينما وصل ماريو إلى المكتب المركزي للقسم، وجد برانستاين وسوينشيك يتحدّثان بصوت خفيض. توقّفا عن الحديث لمّا لاحظا وجوده. التفتا نحوه ووجّها له التحية، ففكّر في أنهما كانا يتحدّثان عنه.

برانستاين أصغر من ماريو. قامته قصيرة وبنيته هشّة. شعره خفيف وملامحه مطموسة. لديه عينان زرقاوان مفعمتان بالحياة وتكشفان عن تحلّيه بذكاءٍ حاد. كان، من دون أدنى شك، ألمع مَن في القسم، على الرغم من صغر سنّه. علاوة على ذلك، حظي برانستاين بطابع ودود لا غبار عليه. كانت زوجته امرأة إيطالية شابّة جميلة اسمها تينا، وتطبخ معكرونة الـ«فيتوتشيني» مع صلصة الريحان بطريقة رائعة. أتاح وجود تينا تحوّل الميل العاطفي الذي شعر به كلٌّ منهما تجاه الآخر إلى

أحد أنواع الألفة. أمّا سوينشيك، فلم يربطه شيء بماريو تقريباً سوى الروتين الذي يفرضه العمل، لكنّ نظراته الجانبية، الخانعة والمتغطرسة في الوقت ذاته، وضحكاته الصغيرة وأسلوبه الثخين في المزاح الذي لطالما بدا مستمتعاً به، لم توقظ داخله حماساً للتقارب معه. مع ذلك، عرف أنّ ثمّة رابطاً لا يعرف مداه الحقيقي يجمع بين برانستاين وسوينشيك، فاضطرّه هذا إلى التعامل مع ذلك الأخير بمراعاة نوعية قد تصل أحياناً إلى حدّ المودّة.

أبدى برانستاين وسوينشيك اهتمامهما بكاحل ماريو، فحاول التقليل من أهمية الحادث ومزح بخصوص فوائد الرياضة. وفيما هو يتحدّث، راوده إحساس غريب، وهو إفراط وعيه في إدراك ابتسامة الأستاذين المرسومة على وجهيهما، كأنّ أحداً قد وجّه على وجهيهما ضوءاً كاشفاً، ففكّر: «لقد عشت هذا الأمر من قبل».

قال برانستاين: «أراكما الليلة في بيت المدير».

قال ماريو: «بالطبع. أراكما هناك».

- هل يمكنني معرفة ما الذي يفعله الأستاذ بيركويكس في مكتبي؟

كان قد اقتحم مكتب السكرتيرة التي اعتادت ألّا تغلق بابها أبداً.

هتفت جويس، وهي تبتسم وتنهض من فوق المقعد الذي افترشته بلحمها: «لا تعرف كم تسعدني رؤيتك، أستاذ روتا!».

ثم سألته بعدئذٍ بحزن: «لكن ما الذي حدث لكاحلك؟!».

أجابها ماريو: «ليس شيئاً يُذكر».

- ما الذي تريد قوله بـ«ليس شيئاً يُذكر»؟ هل انكسر شيء؟ هل هو التواء! آه يا ربّي! على المرء أن يتوخّى حذره.

واصلت جويس حديثها بعد أن برقت عيناها: «لكيلا نذهب بعيداً، في هذا الصيف، تعرّضت إحدى صديقات ابنتي ويني.. بالمناسبة أفترض أنك تعرف أنّ ويني قُبلت في جامعة آيوا. أنا راضية عنها. تخيّل: صارت في الجامعة وهي في الواقع مجرّد طفلة.. المهمّ، كما قلت لك في هذا الصيف، تعرّضت إحدى صديقات ويني..».

شغلت جويس -وهي امرأة كبيرة في السنّ، شعرها أشقر إلى درجة يبدو معها مصبوغاً بماء الأوكسجين- منصب سكرتيرة رئيس القسم. لا وجود لحاجبين فوق عينيها، فيما لا يقلّ طولها عن متر وتسعين سنتيمتراً. أمّا وزنُها، فتخطّى مئة وعشرين كيلوغراماً على أقلّ تقدير. هكذا، صارت هيئتها تشبه الحيتان بصورة جليّة. تعارضت الملابس الطفولية التي اعتادت أن ترتديها -ومنها فساتين حواشيها مطبوعة بالزهور وأربطة حريرية في شعرها وخصرها وتنّورات جرسيّة وأخرى إسكتلندية وغيرها متعدّدة الطيّات- بحِدّة مع عمرها وأبعاد جسدها الفائضة، شأنها شأن الجدائل البريئة التي ضفرت شعرها بها، واعتيادها على السير عبر أروقة القسم وهي تتمايل كعربة مترو، أثناء دندنتها مقطوعاتٍ طفولية ساحرة.

إنها أرملة ولديها شغف واحد: ابنتها ويني. اعتادت أن تُخبر كلّ فردٍ من أفراد

القسم بأحوال حياتها بدقّة وبصورة شخصية. مع ذلك، شهدت نهاية العام الماضي استثناءً، ففي اليوم الذي أبلغتها فيه ويني بأنها قُبلت في جامعة آيوا، وقفت جويس عند باب المصعد في الدور الرابع، وأعلنت النبأ بصوت صارخ، وبنبرة أرادت أن تبدو إذاعية. بعدئذٍ، حين جاءت شرطة الجامعة لإلقاء القبض عليها، عقب أن وردها بلاغٌ بأنّ ثمّة واعظة متطرّفة تُثير الشغب في المبنى، اضطرّ سكانلان إلى التدخّل لتوضيح سوء الفهم.

أوقف ماريو سريعاً حديث السكرتيرة: «اعذريني على مقاطعتك يا جويس!».

ثم أضاف وهو يُعطي انطباعاً بأنّ سؤاله سيظلّ بلا ردّ: «أنا في عجلة من أمري، لكن هل يمكنك أن تُقدّمي لي خدمة وتشرحي لي ما الذي يفعله الأستاذ بيركويكس في مكتبي؟!».

بدت خيبة الأمل على جويس، إذ انطفأت عيناها. جاءت إجابتها شبه غاضبة، إذ قالت: «آه.. تقصد هذا الأمر!».

ثم استدارت لتجلس وراء مكتبها وأنهت حديثها وهي تبتسم بطريقة اعتبرها ماريو حمقاء أو مُقلقة: «يرغب الأستاذ سكانلان في التحدّث معك. سيوضح لك المسألة. أنا أطيع الأوامر فحسب».

قرع باب مكتب سكانلان وسمعه يقول: «تفضّل!».

فتح الباب، فنهض سكانلان وذهب لمصافحته. أبدى اهتمامه بحالة كاحله والكيفية التي وقع بها الحادث، ثم دعاه ليجلس فوق أحد المقاعد المصنوعة من جلود ظباء الجبال المواجهة لطاولة المكتب.

قال: «انتظِرني حتى أفرغ من التوقيع على هذه الأوراق وسأكون معك على الفور!».

يُدير سكانلان القسم منذ عدة سنوات بيدٍ من حديد عبر المواءمة بين قدرته الإدارية الملحوظة، وصِيته الأكاديمي الذي صاغه بمهارة على مرّ السنين بأدوات سياسية أكثر منها فكرية. إنه رجلٌ كبير في السنّ وطويل ونحيف أكثر من اللازم،

كما أنّ إيماءاته مُبهمة وراقية إلى درجة قد تجيش منها النفس. امتدّ شعره الأبيض المتفلطح عند قاعدة جمجمته وصدغيه بلونه الرمادي مشكّلاً عند ذقنه ما يُشبه لحية التيس. أمّا عيناه، فكانتا تثيران القلق من وراء زجاج نظّارته، كأنهما سمكتان تعومان في حوض مائي. يتميّز ملبسه بالنظافة الشديدة التي لا تخلو من لمسة محسوبة من الترف.

قال ماريو حين أبعد سكانلان الأوراق التي كان يُوقّعها: «أخبرتني جويس أنك ترغب في التحدّث معي».

أجابه سكانلان وهو يبتسم كاشفاً عن أسنانه كلّها: «حسناً، لا تتعجّل! في الواقع، المسألة ليست مهمّة جدّاً. يُمكننا أن نتحدّث عنها في يوم آخر بهدوء أكبر».

فقال ماريو: «أيّاً كان الأمر، أفضّل أن نخوض فيه الآن».

نظر سكانلان إلى الأسفل، وتحرّك في مقعده، ثم عدّل وضعه ورتّب الأوراق التي وقّع عليها وهو منغمس في تفكيره. داعب لحيته. لمّا نظر إلى الأعلى مجدّداً، اهتزّت السمكتان باضطراب من وراء زجاج نظّارته.

اعترف، بعد أن تغيّرت نبرة صوته: «أنت محقّ. الآن أفضل. إنها مسألة لا يُمكن تأجيلها إلى وقت آخر. اسمح لي أن أذهب إلى لُبّ الموضوع مباشرة!».

فقال ماريو: «هذا ما أرجوه».

بدأ سكانلان حديثه بصوتٍ مُحايد: «أعتقد أنك تعرف أنّ القسم في وضع سيّئ اقتصادياً. في الواقع، ليس القسم وحده. الأمر وما فيه أنّ الجامعة كلّها على وشك الغرق. تراجعت مخصّصات الدولة للتعليم بنسبة خمسة بالمئة مقارنةً بالعام السابق، واضطررنا خلال هذا الشهر الأخير إلى تحمّل سلسلة من النفقات بل وتوقّع زيادتها، ما يضعنا في مرمى النيران. سأوفّر عليك التفاصيل: لا تختلف الظروف بشكل أساسي عمّا وصفته في الاجتماع الأخير الذي عقدناه في يونيو. إذا كانت تغيّرت في شيء، فهو تغيُّر للأسوأ. لا أعلم ما إذا كانت الانتخابات ستُحسّن المشهد العام، لكن ما أعرفه هو أنّ الوضع الآن غير مشجّع. بالتالي، لم يعد لديّ مفرّ من التعامل معه، وصدّقني، ليست مهمة سهلة، فأهمّ شيء هو الحرص على المصلحة العامة للقسم، حتى وإن تضرّر شخص معيّن».

توقّف، ثم مسّد شعره بيده اليمنى وداعب لحيته، واستأنف حديثه بالنبرة نفسها: «حسناً.. نجحنا من جانبٍ آخر في جذب أستاذ صاحب صيت. أقصد دانييل بيركويكس، وهي مسألة تعرفها بلا شك. يجب عليّ أن أعترف بأنّ الأمر لم يكن سهلاً. بيني وبينك، لم أصدّق حتى آخر لحظة أننا سننجح، لأنّ الشروط التي وضعها كانت مُغالى فيها نوعاً ما. لا أخفي عليك أيضاً: لم أدّخر جهداً لتحقيق ما طلبه مني، وحسبي أنك ستتفهّم أنه يُمكن للمرء تقريباً أن يبالغ بخصوص الأهمية التي سيعنيها لهذا القسم وجود رجلٍ يتمتّع لا بسيرة ذاتية يُحسد عليها فقط، وإنما يقف كذلك في طليعة مجال البحث اللغوي. بل إنني مقتنع أيضاً أنّ بيركويكس، بخلاف مساهمته في تحسين سمعة القسم، سيمثّل حافزاً لا يُقدّر بثمن للجميع، حتى أولئك الذين ينشرون مقالاً كلّ خمس سنوات في مجلّات الصف الثالث».

سمع ماريو التلميح من دون أن يرتبك، لأنه توقّعه، فاقتصر ما فعله على رفع إطار نظّارته بإصبعه، بعد أن انزلقت فوق أنفه. لمّا لاحظ أنّ ذراعه اليمنى قد أصابها بعض الخدر الضعيف، أخرجها من حلقة العكّاز.

لمّا سمع صوت سكانلان مجدّداً، تساءل ما إذا كان قد توقّف عن الحديث وهو يُغيّر

وضعيته.

- في النهاية صار معنا.

- ما الذي تقصده؟

- لا أفهم.

أصرّ ماريو: «ما الشيء الذي صار معنا؟».

أوضح سكانلان برفق من دون أن يُعلّق ظاهرياً على غفلة ماريو اللحظية: «الأستاذ بيركويكس بالطبع».

ثم واصل حديثه: «لتحقيق هذا الأمر، اضطررنا إلى تقديم عرض لا أتردّد حين أصفه بالجذّاب. سأوفّر عليك التفاصيل التافهة غير المجدية وسألخّص لك الأمر: خصّصنا له ضمن أمور أخرى ثلاثة صفوف على الأقل. لا بدّ أنك تتفهّم أنّ هذه المسألة تؤثّر عليك مباشرة. سيتغيّر وضعك، لكنّني متأكّد من أنك ستتمكّن من قبول التضحية لصالح القسم».

سمع ماريو نفسه وهو يقول: «لن أتمكّن. اختصِرا».

بدا سكانلان مستاءً وشرح: «في هذه الفترة، ظروفنا تسمح بأن نعرض عليك صفّاً واحداً لكل نصف عام دراسي. يعني هذا أنّ راتبك سينخفض إلى ثلث ما كنت تتحصّل عليه. أيضاً، عليك بالطبع أن تُدرك أنّ الضرائب قد زادت، وهذه مسألة ستؤثّر علينا جميعاً. من ناحية أخرى، يُمكننا أن ننجح في لحظةٍ ما -ليست في نصف العام الحالي بالطبع- من تدشين صفّ جديد، إذا زاد عدد الطلبة، وسيكون هذا الصف لك بصورة تلقائية.. أيضاً، يُمكنك دائماً أن تطلب واحدة من منح البحث التي تُقدمها الجامعة، أو أيّاً من المناصب الإدارية التي يعلن عنها مكتب العميد، على الرغم من أنني أخشى أنّ جميعها محجوزة. لست في حاجة إلى قول إنه يُمكنك الاعتماد على دعم القسم، ودعمي أنا شخصيّاً، إن تطلّب الأمر».

لم يسمع ماريو العبارة الأخيرة في خطاب سكانلان. رمش بعينيه وحاول ترتيب

أفكاره، ثم بدأ حديثه بحزمٍ مصطنع: «انظر يا سكانلان، يقول عقدي إنّ القسم...».

قاطعه سكانلان بهدوء: «ماريو.. لا تُصعّب عليّ الأمور! أريد أن أصدّق أنك تعي أنك لست في وضعية تسمح لك بالمطالبة بشيء. إن كنّا حتى هذه اللحظة تمكّنّا من تقديم ثلاثة صفوف لك، فهذا لأنّ الأمر كان في متناولنا. الآن، تغيّرت الأمور. أمّا عقدُك، فلا تُجبرني على إخبارك بأنه على أرض الواقع لا قيمة له. اضطررت إلى بذل جهدٍ كبير للإبقاء عليك هنا، وتحمُّل الضغوط الواقعة فوقي. أؤكّد لك أنه يُمكنك أن تشكرني لأنك حين عدت من عطلتك، لم تجد عقدك مفسوخاً».

رمش ماريو مجدّداً وتمتم بأمرٍ لم يسمعه سكانلان، أو أنه تظاهر بأنه لم يسمعه.

أضاف سكانلان: «أفترض أيضاً أنه لا داعي لتذكيرك بأنّ أيّ تصرف قانوني لن يكون حكيماً، وأنك ستجد نفسك على الفور في الشارع».

غمغم ماريو بالإيطالية: «عصابة من الأوغاد!».

سأله سكانلان: «ما الذي تقوله؟!».

محا ماريو تعليقه بإيماءة، فتنهّد سكانلان، ثم قال: «في النهاية، ترتبط المسألة بشدّ الحزام قليلاً لبعض الوقت. أنا واثق بأنّ الأمور ستتغيّر في الربيع على أقصى تقدير، هذا إن لم تتغيّر أصلاً بعد الانتخابات».

نهض ماريو ليخرج. لاحظ بارتباك أنه ليس ممتعضاً، إذ غرق في هدوء غريب، كأنه لا يُمكن لأيّ شيء مما سمعه للتوّ أن يؤثّر عليه، أو كأنها مسألة لا تخصّه وحُكيت له. لهذا لم يتعجّب من صوت سكانلان الذي كاد أن يغدو ودوداً وهو يقول له بسعادة: «أتمنّى أن تأتي مساء اليوم إلى البيت. سيروق جوان أن تراك. الحفل في الخامسة».

قال ماريو من دون تفكير: «بالطبع. ستجدني هناك».

لمّا خرج من المكتب فكّر: «لقد أصابني الجنون. ألقى بي سكانلان تقريباً في الشارع وأنا سأحضر حفله، بل إني سأصمت بدلاً من التفكير في الاحتجاج. لقد

أصابني الجنون».

صدحت جويس: «أستاذ روتا. اسمح لي أن أُريك مكتبك الجديد!».

سار ماريو عبر الممرّ إلى جوار السكرتيرة التي ترنّح جسدها الضخم بصورة خطرة فوق كعبَي حذائها الصيفي المربوط بإبزيم، وهي تتحدّث عن وجود خليلٍ محتمل لويني. تقاطع طريقهما مع خرّيجَين نظرا إلى كاحل ماريو المضمّد والعكاز الذي يرتكز عليه في خطواته المتردّدة. وجّها إليه التحيّة فردّها إليهما. لمّا مرّا من أمام مكتب ماريو السابق، أشارت جويس بإيماءة إلى كومة الأغراض الضخمة المرصوصة في الممرّ، كأنها عثرت على معلومة تؤكّد فرضية تشكّلت للتوّ. ثمّة ثلّاجة محمولة، وكتب وصناديق من الورق المقوّى ملآنة بأوراق ومنافض سجائر قذرة. قال ماريو في نفسه إنّ بيركويكس عثر على شخص لمساعدته في التنظيف. لاحظ أيضاً أنّ باب المكتب موارب، والتقط جزءاً من محادثة لم يفهمها.

يقع المكتب الجديد في نهاية الممرّ بين عدّة مكاتب يشغلها خرّيجون. تلمع فوق بابه صفيحة معدنية عليها رقم 4024 واسمان هما «أولالدي» و«هيون». بينما تُدندن السكرتيرة وتكزّ على أسنانها، عافرت القفل إلى أن انفتح أخيراً.

صدح صوتها مرّة أخرى: «صباح الخير أستاذ أولالدي. أجلب لك زميلاً جديداً في المكتب!».

فكّر ماريو في أنّ جويس تسخر منه، لكنّه لم يقل شيئاً. رفع أولالدي وهو يجلس عند أقصى الطرف المعاكس من المكتب نظرته بشك من فوق رزمة الأوراق الموجودة أمامه، ثم قوّس حاجبيه، وتأفّف قبل أن يخفض بصره.

أولالدي إسبانيّ، ضخم الجثّة. أصلع بالكامل تقريباً، وأخرق نوعاً ما. لطالما سار وهو يميل ناحية اليمين، بكتفٍ أعلى من الأخرى. لم يبتسم قطّ، لكنّه كلّما فتح فمه أظهر صفّين من الأسنان الصفراء غير المتساوية والمتدهورة. إنه أعزب. يعزي البعض هذا الأمر إلى إهماله الواضح في نفسه. لكنّ أبرز شيء في مظهره هو الرقعة القماشية السوداء التي تغطّي عينه اليمنى، والمربوطة بشريط يعبر جمجمته شبه

الصلعاء من هنا إلى هناك، فتمنحه هيئة مقاتل سابق، تُعزّزها خِلقته المعيبة. درّس الأدب الإسباني، وعلى الرغم من كونه أحد أقدم أفراد القسم، عرف ماريو أنّ رأيه بلا ثقل تقريباً في وقت اتخاذ القرارات. عرف أيضاً أنه أحد أنواع المهملات التي قرّر القسم الحفاظ عليها لسببٍ لم يفهم كنهه.

قالت جويس وهي تُوجّه حديثها إلى ماريو بصوت اصطبغ بالبغضاء: «ها هو ذا الأستاذ أولالدي بلطفه وتواصله الشديدين، كما هي عادته!».

ثم أخبرته: «لكن لا تقلق، هيون شابّ خلّاب! لا بدّ أنك ترى أنّ المكتب جيّد جداً، على الرغم من عدم وجود مكيّف. ترتبط المسألة بترتيبه قليلاً، وقبل أن يأتي الشتاء، سنكون قد أصلحنا نظام التدفئة».

المكتب الجديد ليس أصغر من القديم، لكنّ ماريو سيضطرّ إلى تشاركه مع زميلين آخرين. احتوى على ثلاث طاولات تكسوها الكتب والأوراق وتضمّ أدراجاً من الجانبين، وثلاثة مقاعد دوّارة، وخزانتين معدنيّتين، وخزانة ملفّات استقرّ فوقها إبريق قهوة، وبعض الأرفف الملتصقة بالحائط التي تراكمت فوقها الكتب في فوضى مثالية. أضاءت نافذةٌ مستطيلة، تطلّ على حائط من الطوب الأحمر، المكتبَ بصورة غير كافية، فيما ظهرت بعض بقع الرطوبة على السقف.

قالت جويس: «سأبحث عن سو كي تُساعدنا في نقل الأشياء من مكتبٍ إلى آخر، أستاذ روتا! سأعود فوراً».

بمجرّد أن خرجت السكرتيرة، رفع أولالدي نظرته بعيداً عن الأوراق ونظر إلى ماريو بعينه الوحيدة. بعدئذٍ، بينما يجلس ماريو، نهض وسار بظهرٍ مُحدب نحوه.

قال له بتواطؤ، بإنجليزيته العصيّة، كأنه يأتمنه على سرّ: «لا تُقلق نفسك أيها الشابّ! هكذا تسير الأمور هنا. ما باليد حيلة!».

أجابه ماريو بجفاء، لأنه ظنّ أنه يسعى لمواساته: «لست قلقاً!».

بعدئذٍ فكّر: «لكنني يجب أن أقلق»، لكنّه لم يقل هذه العبارة وإنما سأله: «ما الذي يدفعك إلى هذا الظن؟».

كرّر أولالدي عبارته وهو يتجاهل سؤال ماريو: «لا تقلق!».

ثم واصل حديثه من دون تهكّم: «في النهاية، هذا هو الفردوس. يجب عليك فقط أن تنظر حولك، فكلّ شيء نظيف وكلّ الناس لطفاء وكلّ الأمور تنجح، باستثناء هذا المكتب، وهو أمر مفهوم. أعتقد أنهم أرسلوني إلى هنا لهذا السبب. حسبت في البداية أنها مصادفة، لكنني حين أدركت المسألة وتبيّنت لاحقاً أنه ما من شيء يعمل هنا -ولا تنصت لمن يقول لك العكس لأننا سنقضي الشتاء من دون تدفئة، ولن يصلح أحد المواسير المعطوبة التي تُبلّل الجدران- طلبت بنفسي أن أبقى».

فكّر ماريو بمزيج من الشفقة والازدراء: «إنه مجنون».

أبدى أولالدي اهتمامه: «أخبرني.. لماذا أرسلوك إلى هنا؟!».

- طلبت الأمر بنفسي.

هزّ أولالدي رأسه، ومطّ فمه في إيماءة قد تكون ابتسامة: «حسناً، حسناً!».

ثم طقطق لسانه عند سقف حلقه وقال: «أنت ممتعض. لا ألومك. من الطبيعي ألّا يثق المرء بأحد. أعترف لك بأنني أيضاً لا أثق بأحد. مع ذلك، سأقول لك شيئاً: هذا البلد ملآن بقوم رائعين. أجل يا سيّدي! قوم جسورون يتمتّعون بصحة جيّدة ويفيضون بالتفاؤل. ربما هم تافهون بل ومملّون، وهي مسألة أقرّ بها، لكن دعني أقول لك شيئاً آخر: أكبر مزية في هذا البلد هو أنك لست في حاجة إلى الإنصات إلى أحد، وهي مسألة تجعلني أشعر قليلاً كأنني في وطني، لأنّ الأمر نفسه يحدث في إسبانيا. الأمر الوحيد الذي يجب على المرء فعله هو الحديث. يتحدّث الناس. يتحدّثون ويتحدّثون، لكن ما من أحد يُنصت إليهم. لا بدّ أنك تفهم أنّ أمراً كهذا متعة لمن هم على شاكلتي».

توقّف ليفكّر، ثم أضاف: «أمّا أيّ شيء آخر، فأنا أفهمك أيها الشابّ. نحن معشر الأوروبيّين لا نتأقلم بالكامل أبداً. الحضارة القديمة وخبرة القرون وكلّ هذه الأمور. هل قرأت لهنري جيمس من قبل؟».

- ليس لديّ وقتٌ لقراءة الفلسفة.

- كَتب هنري جيمس الروايات. الفيلسوف أخوه.

- ليس لديّ وقتٌ أيضاً لقراءة الروايات.

- لا حاجة إلى قراءة كلّ رواياته، يا رجل! تكفيك واحدة. في الواقع، تقول كلّ روايات هنري جيمس الشيء نفسه.

ابتهج ماريو لمّا رأى جويس وسو -وهي موظّفة آلة كاتبة تعمل في المكتب الرئيسي- تدخلان في تلك اللحظة. تراجع أولالدي حتى طاولته، وصبّ تركيزه مرة ثانية على الأوراق الموجودة فوقها.

بعد انقضاء نصف ساعة، كانتا قد فرغتا من نقل أغراض ماريو من المكتب الآخر. لم يتحرّك أولالدي من مقعده طيلة هذا الوقت، وهو منغلق على نفسه داخل صمته العبوس. شكر ماريو جويس وسو. بعدئذٍ، وصل إلى مكتب جينجر الواقع عند الجانب الآخر من الممرّ. قرع الباب ولم يجبه أحد. عاد إلى مكتبه وطلب سيارة أجرة عبر الهاتف. حين مرَّ أمام باب بيركويكس، وهو يستعدّ للخروج من القسم، لاحظ أنّ الباب مغلق. توقّف للحظة وألصق أذنه بالباب وكتم أنفاسه. لم يسمع شيئاً.

حين وصل إلى البيت، اتصل بجينجر.

- بريندا؟ أنا ماريو.

- آه. كيف حالك؟

- جيّد. هل جينجر هنا؟

- لم أرَها طيلة الصباح. هل تودّ أن أقول لها شيئاً حين تصل؟

تردّد ماريو: «لا داعي. أخبِريها فقط أنني اتصلت!».

أجابته بريندا: «سأخبرها. كيف كانت العطلة؟».

كذب ماريو ليتجنّب تقديم أيّ تفسيرات: «جيّدة جداً، وعطلتك؟».

فتحدّثت بريندا بشغف عن كاليفورنيا.

أوصلت سيارة أجرة ماريو في الخامسة بالضبط أمام بيت سكانلان. إنه مبنى من طابق واحد، هيئته مستطيلة وقصيرة وممتدّة، وجدرانه كريمية اللون. لا وجود لشيء في واجهته، التي نمت أمامها تجمّعات لزهور الأرطنسية والأقحوان، سوى باب أبيض ونافذة كبيرة تقع يميناً. رَوَت بخَاخاتٌ لم تتوقّف عن العمل العشبَ الذي افترش منطقته الأمامية، حيث امتدّ دربان من حجر الأردواز: وصل أولهما مباشرةً إلى بابه، أما الثاني الموازي له، فانتهى عند مستودع أو مرأب من الخشب الداكن بابه أحمر، وصُفَّت داخله سيارتان من تصميم أوروبي.

خرجت زوجة سكانلان لتستقبله في الدرب. ارتدت فستاناً أسود ضيّقاً جدّاً. ابيضّت أجزاء من شعرها القصير والناعم بسبب بعض خصلاته الرمادية، في حين فارت يداها بلمعة خواتمها. فكّر ماريو، من فرط اعتياده على رؤية جوان، في أنّ سنوات الحياة المشتركة تُضفي على الأزواج شَبهاً رذيلاً بعض الشيء. اعتادت جوان أن تحرّك يديها بالإحكام السريع وشبه العصبي نفسه الذي حرّك به سكانلان يديه، كما أنهما تشاركا أيضاً نمط الاستسلام الذي يلين بسببه مُحيّا الأشخاص الذين توقّفوا عن الصراع لإخفاء أضرار تقدّم السن ووجدوا ملاذاً في وقار الشيخوخة.

حيّته جوان وهي تُمسكه من ذراعه: «كيف حالك، ماريو؟! أخبرني ديفيد حالاً بمسألة كاحلك. لو أنه أبلغني قبلئذٍ، لذهبت لأُحضرك من بيتك».

أجابها ماريو: «ليس أمراً جسيماً. بدأت أعتاد الأمر؛ سواء سيارات الأجرة أم الكاحل».

أطلقت جوان ضحكة مدوّية وقالت بطريقة لا تخلو من السخرية: «ينال الحظ السيّئ دائماً من أفضل الناس».

دخلا. ثمّة طاولتان تغطّيهما المشاريب ولقيمات الـ«كانابيه»، وفي الوراء بابٌ زجاجي يطلّ على حديقة فيها أحواض زهورٍ وأصص وأفرشة مُعلّقة متأرجحة. وقف سكانلان في وسط الصالون وهو يصبّ لنفسه شراب الـ«بنش»، فيما يتحاور

مع مجموعة من الخرّيجين. حيّاه ماريو برفع حاجبيه، وهو يجبر نفسه على رسم ابتسامة خرقاء. قدّمت له جوان كأساً من النبيذ وسألته: «كيف كانت العطلة؟».

أجابها ماريو: «حين جاء الأسبوع الثاني، لم أعد أعرف ما الذي يُمكنني فعله».

شعر فوراً وبصورة تكاد أن تكون حسّيّة بأنه كان موجوداً هنا من قبل، وأنّ السؤال نفسه قد وُجّه إليه وأنه قد أجاب عنه بالصورة نفسها، ففكّر: «كلّ الأمور تتكرّر».

أكّدت جوان: «يحدث الأمر نفسه لي، لهذا لا يروقني الابتعاد عن البيت أكثر من أسبوعين متتاليين، وهذا حين يكون لديّ شيء مُحدّد لأفعله. لحسن الحظ، يشاركني ديفيد الرأي، فهذا الصيف على سبيل المثال...».

توقّفت لحظة لتنظر عبر النافذة الكبيرة التي أطلّت أمامهما على مدخل البيت. نزل عدّة مدعوّين من سيارة، فقالت وهي تترك كأس النبيذ فوق أحد الأرفف قبل أن تخرج لاستقبال الواصلين: «اعذرني لحظة!».

توجّه ماريو إلى المكتبة. وجد فويتشيك -وهو بولندي ذو شخصية موضوعية وقامة طويلة وعظام بارزة ويدرّس علم الدلالة- يتحاور مع شابّ بشرته زيتونية اللون، وله شفتان مكتنزتان جدّاً. جلسا على مقعدين متواجهين وأمسك كلٌّ منهما بكأس نبيذ. لمّا رأيا ماريو نهضا، فلم يجد بُدّاً من الاقتراب منهما. قدّم له فويتشيك الشابّ، الذي وصل إلى القسم على ما يبدو بمنحة من الحكومة الهندية، وتحدّث إنجليزية بدت لماريو في البداية كالروسيّة. بينما يتحاوران، امتلأت المكتبة بالمدعوّين. اعتذر ماريو في لحظة ما من فويتشيك والهندي وتوجّه إلى الصالون، وحيّا بعضاً من معارفه وهو يبحث بنظره عن جينجر. لم يعثر عليها. شعر بالانزعاج وسط كلّ هؤلاء القوم، ففتح الباب الجرّار الذي يطلّ على الحديقة وخرج ليدخّن.

وجد أولالدي يرقد فوق أحد الأفرشة المتأرجحة المعلّقة في نهاية الحديقة ونظرته تائهة في حوض زهور سيف الغراب، بينما تتدلّى من شفتيه سيجارة حقيرة. أشعل ماريو سيجارته واقترب منه.

دمدم أولالدي: «قائمة مراجع ممتازة. قائمة مراجع ممتازة».

لمّا لاحظ وجود ماريو، نهض وسأله من دون أن ينظر إليه: «وكيف تبدو لك هذه الحفلات أيها الشاب؟ أنا في هذا البلد منذ عدد لا أعرفه من السنوات ولا أجد تسليةً أفضل منها».

بدأ يحرّك يديه ويغيّر صوته قائلاً: «قرأت كتابك الأخير، أستاذنا الفلاني. قائمة مراجع ممتازة! قائمة مراجع ممتازة! لن أنكر المسألة، أستاذنا العلّاني، بل دعني أقل لك أمراً آخر: لقد نسخ الأستاذ الثّرتاني الأمر مني من دون خجل في كتابه الأخير الموبوء بالأخطاء في كل نواحيه الأخرى. بالمناسبة، أستاذنا العلّاني، قرأت أيضاً مقالك الأخير، ويجب عليّ الاعتراف بأنني اندهشت من الأمانة العلمية التي دحضتَ بها فرضية هذا المتسرّع العتيق المثير للرثاء الأستاذ الباذنجاني التي تقول إنّ أمّ بيتارا كان عمرها سبعة وعشرين عاماً حين حبلت بالمؤلّف، على الرغم من أنه من المؤكّد -وفقاً للبيانات التي ساهمتَ بها بتواضعك المعتاد- أنّ عمرها كان خمسةً وعشرين عاماً».

سحب أولالدي نفساً من سيجارته ونفث الدخان عبر أنفه، ثم كتم ضحكته واستأنف حديثه: «كمٌّ هائل من الضحالة.. يعثرون على الأهلية في قراءة ما لا يرغب أحدٌ في قراءته. وحين يتحدّثون، ينتفخون كالطواويس، ويحسبون أنّ لهم حقّاً في إبداء رأيهم في كلّ شيء، فقط لأنهم قادرون على تمييز مخطوط من القرن الثالث عشر عن آخر من الرابع عشر. ما لا أفهمه هو لماذا يصرّون في هذا البلد على عزلهم في معسكرات الاعتقال الفردوسية المسمّاة بالجامعات على بعد مئات الكيلومترات من أيّ مكان مأهول، أو في الصحراء على رأي البعض. أتخيّل أنّ المسألة كانت منطقية في وقت سابق. أنت تعرف مقصدي: خطر إصابة المجتمع بعدوى أفكارهم المُهلكة وهذه الأمور. لكن الآن، قل لي. قل لي بحقّ الشيطان: أيّ عدوى سيصيبون المجتمع بها، من دون أيّ وجود لأي أفكار داخل رؤوسهم؟ ليس لديهم حتى فكرة واحدة. لديهم بيانات وتواريخ وإحصائيات، لكن ليس لديهم فكرة واحدة. لا تحسب أنني أعدّ نفسي مختلفاً. لا يا سيّدي. لقد ولّت حقبة تساهلي مع نفسي. حينما يصل المرء إلى عمري، فوحدهم من لديهم ميلٌ إلى العبودية يتعطّفون بالتساهل مع ذواتهم».

توقّف أولالدي عن الحديث وهو يفكّر، كأنّ ثمّة فكرة قد مرّت برأسه، ثم ابتسم بطريقة أراد أن يكون لها دلالتها: «أجل يا سيّدي. أنا مثلهم، باستثناء شيء واحد: في حين أنهم لا يدركون أصلاً طابع الحياة الغثّة والمسكينة التي يعيشونها، بعد أن أصابهم ثمل غرورهم بالعمى، فقد تبيّنت بنفسي أننا فعلاً الهمج الحقيقيون».

قاطع خطابَ أولالدي ظهورُ برانستاين وتينا وسوينشيك وزوجته فيليس. جاؤوا وكؤوس النبيذ في أيديهم وألقوا عليهما التحيّة بسعادة. شعر ماريو بأنه دائخ بعض الشيء وبطنين خفيف في صدغيه. فكّر: «إنه النبيذ». دهس أولالدي عُقب سيجارته في الأرض الحجرية، ثم ألقاه بين الزهور. بينما يجلس ببطء محسوب فوق الفراش المعلّق المتأرجح، نظر سوينشيك بطرف عينيه.

قال بسخرية تخلو من البغضاء، لأنه علم أنّ أولالدي ينصت: «أراهن أنّ الأستاذ أولالدي ظلّ يتحدّث معك بالسوء عنا أو عن القسم أو عن الجامعة أو عن الدولة، لا فارق!».

ثم واصل سوينشيك حديثه بنبرة شبه مبتهجة، بل وشبه ودودة: «لطالما سألت نفسي لماذا لا يرحل الأستاذ أولالدي إلى الأبد عن هذا البلد الذي يعامله بمثل هذا السوء، ويعود للعيش في إسبانيا».

قال أولالدي ببطءٍ شديد وهو يرفع نظرته بعينه الوحيدة في اتجاه سوينشيك: «إسبانيا ليست مكاناً للعيش. إسبانيا مكانٌ للموت».

ساد صمتٌ طويل جدّاً بصورة لم يعد معها مزعجاً. ظهر مدعوّون آخرون في الحديقة: فويتشيك والشاب الهندي، دينز، وسارة ساتون وزوجها، وبعض الخرّيجين. انقسمت المجموعة إلى حلقات ثرثرة متنوّعة، واتسمت المحادثات بالحيوية. تحدّث ماريو وتينا عن العطلة، ثم سألته تينا: «متى ستأتي لتناول العشاء في بيتنا؟».

مزح ماريو: «هذا يعتمد على الطاهية».

- ستتفوّق الطاهية على نفسها.

- إذاً، أيّ يوم مناسب.

- الخميس؟

- الخميس.

تحجّج ماريو بأنه يحتاج إلى النبيذ ودخل البيت ثانية. بحث عن جينجر. لم يجدها لا في الصالون ولا في المكتبة، وحينئذٍ، خطر على باله أنّ بيركويكس هو الآخر لم يصل بعد.

دخل المرحاض ونظر إلى نفسه في المرآة. تعرّف على نفسه بمشقّة. بدا جلده شاحباً، وانطبق الأمر نفسه على شفتيه ووجنتيه المنحوتتين، فيما تيبّست ذقنه. على الرغم من أنّ صدى المحادثات لم يصل إلى مكانه، شعر به يتردّد داخل رأسه، ومن دون رغبة حقيقية وجد نفسه يفكّر: «سينتهي بي المطاف مثل أولالدي»، ثم ندم فوراً على التفكير في الأمر. تبوّل وغسل يديه وطشّ وجهه ومعصميه بالماء، وجفّف نفسه بمنشفة. لمّا خرج من المرحاض، وهو يشعر بانشراح صدره نوعاً ما، لاحظ أنّ أغلب المدعوّين انتقلوا من الحديقة إلى الصالون. تحدّث بيركويكس بحيوية، بعد أن جذب بوضوحٍ انتباه أكبر المجموعات التي وقفت إلى جوار المدفأة، وهو يشرح شيئاً ما ويحرّك يديه. انفجرت المجموعة كلّها في الضحك لمّا اقترب ماريو. حين خفتت الضحكات، واصل بيركويكس حديثه بنبرة أهدأ. رأى جينجر تقف قرب الحلقة، إلى جوار برانستاين، فحيّاها بابتسامة ودودة، وتساءل ما إذا وصلت إلى الحفل في صحبة بيركويكس. فكّر: «إنها جميلة». تفكّكت الحلقة ولاحظ ماريو أنّ جينجر بقيت لتتحدّث مع بيركويكس وسكانلان وتينا. أمّا برانستاين وسوينشيك وفويتشيك ودينز، فاستمرّوا في حديثهم وضحكهم إلى جوار مائدة المشروبات.

عاد ماريو إلى الحديقة. لم يجد أولالدي. بينما يشعل سيجارته، تساءل ما إذا كان قد خرج وفي نيّته التحدّث مع الأستاذ الإسباني. عجز عن الإجابة عن سؤاله، لأنّ برانستاين قاطعه.

قال بنبرة تأنيب مرحة: «ما الأمر يا رجل؟! لا يُمكن للمرء أن يقول إنك اجتماعي

جداً اليوم».

اعترف ماريو بابتسامة ضعيفة: «صحيح».

ثم أضاف كاعتذار وهو يشير إلى الحديقة بحركة من يده التي تُمسك السيجارة: «خرجت لاستنشاق الهواء والتدخين. في الحقيقة، يؤلمني رأسي قليلاً».

- ألست قلقاً من مسألة الصفوف؟

- من حكى لك الأمر؟!

قال برانستاين: «لا يحتاج الأمر إلى أن يحكيه لي أحد. يكفي المرء فقط أن يجمع ويطرح. إنها عملية حسابية بسيطة».

أجابه ماريو: «لم أشعر بالقلق إلى أن ذكّرتني بأنني يجب أن أشعر بالقلق. أتساءل كيف ستتصرّف لو أنك في مكاني».

بمجرّد أن أنهى كلامه، فكّر في أنه ظلم برانستاين لأنه بلا شك لم يسعَ إلى إغضابه، وبينما يستعدّ للاعتذار، ظهر سكانلان وجينجر وبيركويكس في الحديقة. كان هنالك ضحك وتحيّات. فكّر ماريو: «لا أقدر على إنهاء كلامي. أعجز عن التفكير حتى النهاية. إنه كابوس». في تلك الأثناء، تحدّث بيركويكس مجدّداً، ببطء، وهو يعتني بتنغيم مقاطعه. أنصت إليه سكانلان وجينجر وبرانستاين من دون أن يرمشوا. بينما ينظر ماريو إلى جينجر، فكّر في أنه مغرم بها. فكّر: «لطالما كنت مغرماً بها». بعدئذٍ سمع عبارة: «لا بدّ أنكم تعرفون أنني وماريو جاران».

علّق سكانلان وبرانستاين على المصادفة، في حين تفقّدت جينجر ماريو بعينيها. بعد لحظة، عاد برانستاين إلى الصالون، وابتعد سكانلان وبيركويكس نحو طرف الحديقة الذي تتدلّى فيه الأفرشة المعلّقة المتأرجحة. تحدّثت جينجر: «لم تُخبرني أنّ بيركويكس جارك».

- ما الذي تقولينه؟

كرّرت جينجر عبارتها: «لم تُخبرني أنّ بيركويكس جارك».

- لقد نسيت.

تحدّثت جينجر ثانيةً: «لقد عرض أن يشرف على رسالتي».

- مَن؟

- بيركويكس.

كذب ماريو: «سعيد من أجلك».

شعر بأنّ كلّ الحقد الذي احتضنه ضد بيركويكس وسكانلان وجينجر وبرانستاين وكلّ شيء والجميع قد تكدّس داخل حنجرته. قال بتسرّع، كأنه يودّ التحرّز من شيء ما: «لماذا لا نلتقي لاحقاً في بيتي. سيروقني أن أتحدّث بمفردي معك».

سارعت جينجر بالإجابة: «لا يُمكنني. عليّ أن أُجهّز محاضرات الغد».

لمّا عاد إلى الصالون بحث عن جوان.

- هل يُمكنني أن أجري مكالمة؟

قالت جوان: «بالطبع».

قادته إلى غرفة داخلية. طلب ماريو رقماً هاتفيّاً واستدعى سيارة أجرة. بعدئذٍ، اجتمع في المكتبة مع برانستاين وتينا.

قال: «سأغادر».

سألته تينا: «هل تريد أن نرافقك؟».

أجاب ماريو: «لا داعي. طلبت سيارة أجرة بالفعل».

قال برانستاين: «سآتي غدا لإقلالك من بيتك في العاشرة. لا داعي لأن تُنفق راتبك كلّه على سيارات الأجرة!».

اعترف ماريو: «في ظلّ الوضع الحالي، لن يكون أمراً مستبعداً جدّاً».

ساد الصمت.

اعتذر برانستاين: «سامِحني على ما قلته سابقاً. لم أرغب في مضايقتك».

- لم تُضايقني.

قالت تينا: «ننتظرك يوم الخميس في بيتنا».

كرّر ماريو كلمتها: «الخميس إذاً».

رافقته جوان حتى الباب. قبل خروجه، بحث ماريو عن أولالدي وسط مجيء الضيوف وذهابهم، لكنّه لم يجده. قالت له زوجة سكانلان: «سعيدة بأنك قضيت وقتاً طيّباً».

لم يتذكّر ماريو أنه قال إنه قضى وقتاً طيّباً.

مع ذلك، قال: «أجل، كان حفلاً رائعاً!».

بينما يهزّ يده، وهو يجلس في المقعد الخلفي لسيارة الأجرة، كي يودّع جوان التي ظلّت واقفة عند مدخل البيت، ظهر سكانلان إلى جوار زوجته وهزّ يده وتقدّم مسرعاً عبر درب صخر الأردواز، وهو يهتف بأمر لم يسمعه ماريو، لأنّ نوافذ السيارة مُغلقة.

لمّا وصل إلى بيته حضّر محاضرة الثلاثاء من دون رغبة حقيقية. بعدئذٍ فتح زجاجة من نبيذ «شابلي» وخرّ ساقطاً فوق الأريكة. ظلّ يشرب ويدخّن ويشاهد التلفاز لمدّة، وحين دقّت الحادية عشرة، دخل فراشه.

نام مشغول البال. أيقظه كابوس فجراً. حاول أن يُبقيه داخل ذاكرته وألّا يُبدّده استيقاظه، لكنّه عجز. لم يتمكّن من تذكُّر شيء منه سوى صوت بيركويكس وهو يُدمدم: «قائمة مراجع ممتازة. قائمة مراجع ممتازة».

شعر ماريو بعد طلاقه من ليسا بأنه قد تحرّر من حملٍ منهك. سريعاً، تحوّلت هذه الراحة المبدئية إلى قلق. انزعج في البداية من اضطراره مرّةً ثانية إلى تولّي كلّ المسؤوليات التي ألقاها فوق كاهلها. تفهّم لاحقاً أنه اعتاد أن يثق بها وأن يحبّها بطريقته، وأنّ غيابها خلّف فراغاً لا يُمكن ملؤه. ليس فراغاً عاطفيّاً فحسب بل وجدانيّاً. لم يُطِق حياة الوحدة وصار يمقت هذا البيت الذي تشاركه معها. كانا قد اتفقا بعد الانفصال أن يبقى فيه، واختارت هي الانتقال إلى شقة تقع في ضواحي المدينة. فوق كلّ هذا، جاء الارتباك التدريجي الذي بثّته فيه رؤيتها بصورة شبه يومية في الجامعة، لأنّ قسم التاريخ موجود في بناية قسم اللغويات نفسها. في ظلّ تهاون ماريو الأخلاقي، ساهم المسار الوادع الذي بدا أنّ حياتها قد سلكته وهيئتها الممتازة وحيويّتها التي لا تنضب وظلّت تشعّ منها بثبات -بل وربما زادت بعد اضطراب الانفصال- وصدى نجاحاتها المهنية التي لا تتوقّف، ووصلت إلى ماريو دائماً من أفواهٍ أخرى وليس منها قطّ، وشمعتُها الأكاديمية المتنامية التي انبثقت من هذه النجاحات؛ ساهمت كلّ هذه الظروف في إقناعه بأنه قد أُغرم بها مجدّداً.

قرّر أن يتحدّث معها. حدّد موعداً. شرح لليسا باستفاضة ما يشعر به. طلب منها أن يعودا إلى الزواج، فابتسمت بعذوبة.

قالت ببطء كأنها تُداعب كلماتها: «ماريو.. مشكلتك أنك تخلط بين الحب والضعف».

بعد شهرين، تزوّجت ليسا بطالبٍ من طلّابها يصغرها بخمس سنوات. حينذاك، كان ماريو قد قرّر فعلاً أن يترك جامعة براون. فكّر مجدّداً في العودة إلى إيطاليا. في تلك الأثناء، أرسل طلبات توظيف إلى عدّة جامعات أميركيّة. لمّا تلقّى عرضاً من جامعة إلينوي، لم يتردّد لحظةً في قبوله.

عاد إلى العمل مجدّداً في أغسطس. لم تَرُقه لا الجامعة ولا القسم الذي عُيِّن فيه. مع ذلك، سارع بمحاولة عقد صداقات، لأنه عرف أنه سيظلّ هناك لبعض الوقت.

نجح في مسعاه بصورة شبه فورية، ومردّ الأمر إلى شخصيات بقية أساتذة القسم المنفتحة والودودة على وجه الخصوص.

ظهرت خرّيجة في مكتبه في الأيام الأولى للعام الدراسي. كانت شابّة متوسطة القامة. شعرها طويل وناعم وهائج بصورة مُنظّمة. عيناها زرقاوان وخدّاها مكتنزان. ارتدت قميصاً بلون الليلك كافح لاحتواء متانة نهديها البارزين، وتنورة قصيرة بيضاء ترسم فخذيها وتُظهر ساقيها الشاحبتين الطفوليتين نوعاً ما. اسمها جينجر كلاود. ظلّت تتحدّث فترة. لاحظ ماريو أنّ عينيها تلمعان. خمّن أنّ عمرها قرابة خمسةٍ وعشرين عاماً. لمّا خرجت من مكتبه، كان ماريو قد قبل فعلاً أن يشرف على رسالتها.

حضرت جينجر أحد صفوف ماريو. تحدّثا كثيراً. عاملها ببرود لا يخلو من الغزل. كان يعي أنه يجذبها بطريقةٍ ما وربما أشعره هذا الأمر، بصورة متناقضة، بالإطراء والانزعاج في الوقت نفسه.

دعته جينجر في مطلع أكتوبر إلى حفل في بيتها. شربا الويسكي ورقصا ودخّنا الماريغوانا ودردشا.

في اليوم التالي، لمّا استيقظا، كانت جينجر لا تزال إلى جواره.

انطلاقاً من تلك اللحظة، بدأا يتقابلان خارج الصفّ كثيراً. مع ذلك، استمرّ ماريو في الإبقاء على المسافات. في البداية، انبثق هذا السلوك من داخله بشكل طبيعي، إذ لم يُرد أن يخلق اعتماداً وجدانيّاً جديداً. بعدئذٍ، رسّخ هذا السلوك داخل نفسه عمداً، لأنه انتبه إلى أنّ البُعد أداة للسيطرة. ستظلّ جينجر رهن إشارته، ما دام سيتمكّن من إبقائها هكذا. اكتشف أيضاً أنّ هذه الوضعية تمنحه رفاهاً مستمرّاً، وتُعيد إليه الاتّزان الذي فقده حين انفصل عن ليسا. تمتّع بكلّ مزايا مودّة جينجر وتجنّب كلّ التنازلات، بل وحتى أشكال العبودية التي ربما كانت لتنجم عن استثمار وجدانه فيها. في البداية، قبلت جينجر الشروط الضمنية التي فرضها ماريو، وقالت إنها لا ترغب في علاقة تتخطّى حدود الصداقة الجيّدة. لاحقاً بدأت تشكو من قلّة اهتمام ماريو ومعاملته المهملة، على الرغم من أنها لم تتوقّف عن التلميح أمامه إلى المغامرات

الغرامية التي تتورّط فيها. في النهاية، تحوّل ماريو إلى هوس بالنسبة إليها، لأنها عجزت عن تخطّي الحاجز الذي شيّده بينهما، فأصبحت في المساء نفسه، من دون فوارق زمنية تقريباً، تنام معه وتغضب وتبكي وتناقض نفسها، وتسبّه وتخرج من بيته وتصفع الباب، فيما يلوذ ماريو بصمته غير المبالي، قبل أن تأتيها مكالمة هاتفية منه بعدئذٍ بساعات ليتصالحا.

على هذه الحال، مرّ عامٌ تقريباً.

خرجا في الليلة التي تسبق سفر ماريو إلى عطلته في إيطاليا ليتناولا العشاء، وفكّر وهو يودّعها أنه سيفتقدها.

افتقدها فعلاً خلال الشهر الذي استغرقته العطلة. كتب لها بطاقة بريدية من نيس، وأخرى من أمستردام حيث توقّفت رحلته. كتب لها عدة رسائل أيضاً من تورينو. قال في إحداها: «كأنه محكومٌ عليّ بتمنّي ما لا أملكه وانعدام حبّي لما بين يديّ. يكفيني أن أحقّق شيئاً ما كي يتوقّف اهتمامي به. ظنّي أنّ الطموح يولد من أشياء كهذه، لكنني أصلاً لست طموحاً، بل أفتقر إلى القوة اللازمة للحفاظ على ديمومة الرغبة». اعترف لها في خطاب آخر: «أعرف قيمة أيّ شيء، فقط حين أفقده».

ندم في الأسبوع الثاني من وجوده في تورينو على عدم مرافقة جينجر له. فكّر في إحدى اللحظات أنه مغرمٌ بها، ثم قال لنفسه في يومٍ آخر إنه سيكمل ثلاثين عاماً قريباً، وإنه من الملائم له أن يتزوّج ثانية، وإنّ جينجر من دون شك هي الشخص المناسب.

لمّا نزل في شيكاغو، بعد انتهاء العطلة، كان قد قرّر أن يقترح على جينجر أن تتزوّجه.

في الصباح التالي مرّ برانستاين على بيته في التاسعة والنصف لإقلاله. سمع ماريو بوق السيارة ونظر من نافذة المكتب ورآها، فخرج.

سأله برانستاين وهو ينعطف يساراً عبر جادة «يونيڤرسيتي» ليمضي عبر شارع «جودوين»: «كيف حال كاحلك؟».

أجابه ماريو: «بخير. يُهيّأ إليّ أحياناً أنني سأعجز عن السير حين تُزال الجبيرة وأستغني عن العكّاز».

ابتسم برانستاين: «ومتى سيحدث هذا؟».

شرح ماريو: «قِيل لي أن أعود يوم الأحد، لكنني على الأرجح سأذهب قبلئذٍ. أعتقد أنّ التورّم قد اختفى».

تركه برانستاين عند بوّابة «قاعة لينكوين»، فشكره على توصيله إلى هناك.

قال برانستاين: «لو أردت يُمكنني أن أمرّ على بيتك غداً في التوقيت نفسه. أنا الآخر لديّ صفّ في العاشرة».

وافق ماريو وودّع كلٌّ منهما زميله.

دخل القاعة. امتلأت الممرّات بالطلّاب. صعد إلى الطابق الثاني ودخل القاعة رقم 225. وجد بعض الطلّاب ينتظرون بالفعل بداية المحاضرة. جلس ماريو إلى طاولة الأستاذ التي انتصبت فوق منصّة خشبية، ثم ترك عكّازه ليستند إليها، وأخرج بعض الأوراق من حافظته. لمّا دقّ الجرس، نظر إليه أربعة وعشرون زوجاً من الأعين.

قدّم نفسه وشرح بارتباكٍ البرنامج الذي اعتزم تدريسه للصفّ وأسلوب التقييم الذي سيستخدمه. بعدئذٍ، سمح بالأسئلة، ولأنه لم يرِده أيّ سؤال، أنهى المحاضرة وبدأ الطلّاب يخرجون. بينما يضع الأوراق التي أخرجها من الحافظة، لاحظ فتاةً ذات عينين جاحظتين وشعرٍ ضارب إلى الحمرة تنظر إليه بسخرية وهي تمرّ أمام الطاولة. شعر للحظة بأنه متأكّد من أنه قد رآها سلفاً، بل وحسب أنه سيتعرّف عليها،

لكنّه لم يتمكّن. التقت الفتاة عند الباب طالبةً أخرى، أقصر وأسمن منها، وشرعتا في الضحك. فشل ماريو في تجنّب الإحساس بأنه سخيف بعض الشيء، ثم جمع أغراضه وخرج.

في ساحة الكلّيّة، وهي عبارة عن حيّز مربّع من العشب تحوطه بنايات الجامعة وتقطعه بعض الدروب الأسمنتية التي تصل البنايات ببعضها، ساد الصمت المعتاد أثناء توقيت المحاضرات تحت الشمس القاسية الوهّاجة. تشمّس فقط بعض الطلّاب هنا وهناك، ببناطيلهم القصيرة وقمصانهم الفضفاضة، أو تحدّثوا وهم يضيّقون أعينهم، فيما جلس آخرون ليقرؤوا وهم يستندون بظهورهم إلى جذوع الأشجار، وتقاذف غيرهم كرات بيسبول أو جعلوا أقراصاً بلاستيكية تنزلق في ما بينهم بهدوء فوق العشب، وسار قليلون فوق الدروب الأسمنتية. مع ذلك، فما إن دقّ الجرس الذي يعلن انتهاء الصفوف، حتّى اندفع الطلّاب عبرها وساروا نحو المبنى الذي يجب أن يحضروا فيه محاضرتهم التالية. حينذاك تسمّمت الأجواء بالهتافات والموسيقا والمحادثات والتحيّات. حين دقّ الجرس بعد عشر دقائق ليعلن هذه المرّة استئناف المحاضرات، عادت ساحة الكلّيّة لتصبح بحراً زيتيّاً هادئاً.

دخل ماريو «مبنى اللغات الأجنبية» وصعد إلى الطابق الرابع. التقط البريد من المكتب الرئيسي، ثم توجّه إلى مكتبه. لم يجد أولالدي أو هيون. رتّب الكتب والأوراق في أدراج المكتب وعلى الأرفف وفي خزانة الملفّات. بعدئذٍ وصل إلى مكتب جينجر. دقّ بابها. لم يجبه أحد. وجد سوينشيك في المكتب الرئيسي. عرض عليه أن يوصله بسيارته إلى البيت، فقبِل ماريو.

هاتفَ جينجر من الشقة. اقترح عليها أن يتناولا العشاء معاً. قال: «أريد أن أتحدّث معكِ». بعد نصف ساعة، مرّت عليه لإقلاله. ذهبا معاً إلى «تيمبونيز».

سألته جينجر وهي تحدّق في قائمة الطعام: «ما الذي أردت أن تتحدّث معي بخصوصه؟».

اعترف ماريو: «ليس شيئاً محدّداً. خطر على بالي أنّ بإمكاننا أن نتحدّث لبعض الوقت. صار الأمر صعباً مؤخراً».

اتفقت معه جينجر: «أجل. في الحقيقة، أنا مشغولة جدّاً. تكون بداية العام الدراسي على هذه الحال دائماً».

جاء النادل. طلب كلاهما سلطة وشريحة لحم. ارتدت جينجر تنورة جلدية بنّية وقميصاً وردياً فضفاضاً جدّاً. انساب شعرها اللامع فوق كتفيها. فكّر ماريو: «إنها جميلة». قال من دون انزعاج لاستئناف المحادثة: «أنا على النقيض، كلّما مرّ الوقت، زاد وقت فراغي».

توقّف ثم أضاف: «حرمني سكانلان من صفّين».

واصلت جينجر الحديث نيابةً عنه: «وكلّف بهما بيركويكس. أخبرني برانستاين بالأمر، لكن لا يحتاج المرء إلى أن يكون عبقرياً، كي يتوقّع المسألة».

- ما الذي تقصدينه؟

- لا شيء.

غيّر ماريو الموضوع لأنه لم يرغب في الشجار. تحدّثت جينجر فوراً عن الحفل الذي شهده بيت سكانلان، واحتمالية الانتهاء من رسالتها في العام الجاري، والاهتمام الذي أبداه بيركويكس بها، وعن التوجيهات التي قدّمها لها، ثم طرحت إمكانية طلب منحة من القسم، لأنها إذا حصلت عليها يمكنها التخلّي عن الصفوف التي تُدرِّسها لتكرّس نفسها فقط للعمل البحثي. لمّا انتهيا من تناول الطعام، حاول ماريو أن يُمسك يدها، فأبعدتها جينجر.

سألها ماريو وهو ينظر إلى عينيها: «ما الذي يحدث لكِ؟ كلّ الأمور سيّئة منذ عودتي».

- حسبما أتذكّر، لم تسِر الأمور بشكل جيّد قطّ.

بدا صوت جينجر هذه المرّة مختلفاً، كأنه أرفع.

- لقد تغيّرتِ في ظرف شهر.

- لقد تغيّرت.

- ما قصدك؟

- أنت من قالها.

- لماذا لا تتركين هذا النزال اللفظي وتقولين لي ما الذي يحدث؟

كرّرت جينجر عبارتها: «لقد تغيّرت. لم أعد أحبّك».

ساد الصمت.

كرّرت جينجر مرّةً أخرى عبارتها بقناعة أكبر كأنها تشجّع نفسها: «أنا لا أحبّك ولا أريد أن نعود إلى الوضعية السابقة نفسها».

- ستكون كلّ الأمور مختلفة.

قالت: «ستكون كما هي بالضبط. حتى وإن اختلفت، فلا فارق. لم أعد أحبّك. أيضاً، لا أريد أن نتطرّق إلى هذا الموضوع».

في النهاية، دفعا الحساب وغادرا المطعم.

عاد يوم الأربعاء إلى بيته في الحافلة، بعد المحاضرة التي أنهاها مبكّراً عن موعدها بساعة، لأنه شعر بأنه منهك وخائر القوى وربما منزعج أو خجول بعض الشيء من جبيرة كاحله وعكازه الذي استند إلى السبورة. لمّا نزل في شارع «ويست أوريغون» لاحظ أنّ هنالك فتاة جاحظة العينين تُحيّيه من سيارة مصفوفة على الجانب الآخر من الطريق. فكّر فوراً في أنها الطالبة الصهباء التي أربكه سلوكها في اليوم السابق لدى خروجه من الصف. لمّا عبر الشارع، تفهّم أنها ليست هي.

اعتذرت الفتاة، لمّا صار ماريو على بعد عدّة أمتار من السيارة: «عذراً، ظننتك شخصاً آخرا».

فكّر ماريو في أنه عاش موقفاً مشابهاً خلال هذا الأسبوع، لكنّه لم يتذكّر متى. قال في نفسه: «كلّ شيء يتكرّر».

نام القيلولة بعد تناول الغداء. استيقظ بفمٍ دبِق وطنينٍ خفيف في صدغيه. بينما هو في الحمّام، عكست له المرآة وجهاً تقطعه آثار ثنايا الوسادة. غسل وجهه وأسنانه وجهّز القهوة. بعدئذٍ، حاول أن يقرأ وهو في غرفة الطعام، لكنّه أدرك فوراً أنه لا جدوى من الأمر، بسبب عجزه عن التركيز. توجّه إلى المطبخ وفتح عبوةً من البيرة. شغّل التلفاز ورقد فوق الأريكة، وظلّ يقفز عبر جهاز التحكّم من قناةٍ إلى أخرى، من دون أن يبقى وقتاً طويلاً في أيّ منها. بدا له نحو السادسة أنه سمع جلبة بسبب خطواتٍ وأصوات عند صحن السلّم. خفض صوت التلفاز إلى أدنى درجة ونهض من فوق الأريكة. حبس أنفاسه وألصق عينه بوصواص الباب. لم يرَ أحداً، لكنّه سمع ضوضاء مكتومة لموسيقا مع محادثات تصله من شقّة بيركويكس. رقد مجدّداً فوق الأريكة ورفع صوت التلفاز، وعاد إلى التنقّل بين القنوات. بعد مرور بعض الوقت، شعر بالملل من التلفاز، فذهب إلى مكتبه ووضع مقعداً إلى جوار النافذة التي تطلّ على واجهة المبنى وعلى شارع «ويست أوريغون». دخل عبر النافذة ضوءٌ صافٍ لم يصبه صدأ شمس الغروب الآفلة.

حاول القراءة. بعدئذٍ ببرهة، لمّا رفع بصره من فوق الكتاب، شاهد كيف يصفّ ديفيد وجوان سكانلان السيارة أمام البيت. أبعد المقعد بصورة غريزية عن النافذة واختبأ. دخل سكانلان وزوجته بناية ماريو، ففكّر: «إنهما ذاهبان إلى بيت بيركويكس». ذهب إلى غرفة الطعام، فيما يخطو بهدوء فوق قدمه المصابة، لكيلا يصدر عكّازه ضجّة. نظر من الوصواص. رأى سكانلان وجوان يقرعان الباب المواجه. فتح لهما بيركويكس فوراً، ثم أفسح لهما الطريق. رأى لاحقاً سوينشيك وزوجته يصلان، ومن بعدهما برانستاين وتينا، فدينز، ثم فويتشيك وعدة أساتذة غيرهم. أيضاً، دخل اثنان من الخرّيجين.

حينما قدّر أنّ كل المدعوّين وصلوا إلى حفل بيركويكس، كان الليل قد حلّ فعلاً. ذهب إلى المطبخ وفتح زجاجة من نبيذ «شابلي». رقد فوق أريكة غرفة الطعام وشغّل التلفاز مجدّداً. ظلّ برهة يدخّن ويشرب. فكّر في إحدى اللحظات أنه قد يخطر على بال برانستاين أو سوينشيك أو حتى بيركويكس نفسه الدقّ على بابه لدعوته إلى الانضمام إلى الحفل. حينئذٍ، نهض كأنّ زنبركاً حرّكه من مكانه، وأطفأ أنوار المطبخ والمكتب وغرفة الطعام وفصل التلفاز. عاد ليجلس على الأريكة وسط الظلام، وهو يمسك في يدٍ بكأس من النبيذ، وفي اليد الأخرى بسيجارة مشتعلة. دخل ضوءٌ رمادي خافت من النوافذ، وكلّما سحب نفساً من سيجارته، أضاءت شعلتها وجهه بصورة خفيفة. مرّ بعض الوقت، وبعدئذٍ سمع أصواتاً عند صحن السلّم، وتعرّف على الأرجح على صوت تينا. دقّوا بابه، فكتم أنفاسه وظلّ بلا حراك. سمع صوت برانستاين: «لا بدّ أنه خرج». ألقى شخصٌ ما لم يتعرّف على صوته تعليقاً. ظنّ أنه سمع بعض الضحكات ثم باباً يُصفع. سمع بعدئذٍ على الفور تقريباً صوتاً لضوضاء عند صحن السلّم. تسلّل إلى أن وصل إلى الباب ثم نظر عبر الوصواص. رأى فيليس، زوجة سوينشيك، وتينا وهما تحملان كؤوساً وزجاجات، وجينجر التي حملت صينية من ورائهما. لسببٍ ما، لم يندهش من رؤيتها هنا. فكّر: «لا بدّ أنها كانت أول الواصلين».

فهم أنّ الحفل قد انتقل الآن إلى المدخل المسقوف. وصل إلى المكتب وهو يقفز على ساق واحدة. فتح النافذة التي تطلّ على «ويست أوريغون» ويقع تحتها

المدخل المسقوف الذي انحجب وراء بروز كبير من القرميد، ثم رفع الستار. جلس إلى مقعد الصالون وبدأ يسمع. في البداية، تداخلت الأصوات في ما بينها في دمدمة من دون ملامح. بعدئذٍ، أرهف سمعه وميّز أو حسب أنه ميّز صوت سكانلان وصوت بيركويكس، ثم ضحكة جمعت بينهما على الفور. بعدئذٍ بلحظة، سمع بشكل غير واضح بيركويكس يتحدّث عن مؤتمر، ويشير إلى أسماء معروفة ويمزح بخصوص أستاذة يصعب نطق لقبها. بعدئذٍ، جاء جمعٌ من الأصوات فمَحا صوت بيركويكس. ذهب ماريو إلى غرفة الطعام، أخذ زجاجة نبيذ «شابلي»، وكأساً، ومنفضة سجائر، والسجائر نفسها. لمّا عاد ليجلس إلى جوار النافذة، ساد الصمت التام المدخلَ المسقوف، ولم يقطعه سوى ضوضاء عرضية لسياراتٍ تمرّ عبر الشارع. حينئذٍ بدأ يسمع بوضوح صوت سكانلان. تحدّث بيقينٍ حميميّ عن إصراره على رفع مستوى القسم. قال إنه متأكّد من حصوله على دعم الجميع لتحقيق هذا الغرض، ففي النهاية سينتفع الكلّ من تحوّل القسم إلى بؤرة لتجمّع الصفوة. أكّد أنّ الطريقة الوحيدة لتحقيق هذا المسعى ترتبط برفع مستوى طاقم التدريس وانتقائه وفقاً لأشدّ المعايير، بشكلٍ أو بآخر، عن طريق اختبارات دورية تقيس مستوى أهليّته وتُجبر أفراده على الحفاظ على أعلى مستوى. أكّد أنّ الكلّ يعرف أنه على الرغم من أنّ التعاقدات السارية تتضمّن بنداً يُلزم الأساتذة بإصدار سلسلة من المنشورات قبل أن يُجدّدها لهم القسم، أو قبل تعيينهم بصورة دائمة -إن انطبقت عليهم هذه الحالة- فإنّ هذا الإجراء لم يُطبّق حتى الآن، بتسامحٍ كان مُفرطاً بلا شك، بل ومضرّاً قبل أي شيء آخر، سواء للقسم أو للفرد المعنيّ بهذه المسألة. في النهاية، أعلن أنه ينوي تقديم مشروع محدّد يعكس كلّ هذه المتطلّبات في اجتماع اللجنة المقبل، وبناءً عليه اختتم حديثه بأنه ينتظر هكذا تدشين حقبة جديدة.

سمع ماريو بيركويكس وسوينشيك وهما يدعمان بقوّة مقترح سكانلان، وبالمثل برانستاين. سمع بعدئذٍ عدّة أصوات أخرى تنضمّ إليهم. تشعّبت المحادثة بعدئذٍ وسلكت منعطفات متنوّعة. لم يعد يلتقط سوى أجزاء غير مرتبطة منها. في لحظة معيّنة، سمع ماريو اسمه من فم بيركويكس، وبعده ضحكة صغيرة متوتّرة من سوينشيك، لكنّه لاحقاً فكّر أنه في الواقع لا يُمكنه تأكيد حدوث هذا الأمر.

في العاشرة والنصف بدأ المدعوّون يرحلون، وكانت جينجر آخرهم في المغادرة.

استيقظ في الثامنة في اليوم التالي. استحمّ وقدمه اليسرى ملفوفة في حقيبة بلاستيكية. اشتمل إفطاره على فنجان قهوة فقط. مرّ برانستاين لإقلاله في التاسعة والنصف.

سأله وهو ينعطف عن جادة «يونيفيرسيتي» ليسلك شارع «جودوين»: «كيف حال كاحلك؟».

أجابه ماريو: «أفضل. إنها مسألة يومين فقط».

أخبره برانستاين: «اجتمع بعضنا في الليلة الماضية في بيت بيركويكس. نادينا على بابك لكن لم تكن موجوداً».

تحجّج ماريو: «خرجت لقضاء بعض الحوائج ولم أعد إلا بعد أن تأخّر الوقت».

بعدئذٍ، أبدى اهتمامه، كأنه يسعى للتخلّص من الصمت الذي استقرّ في السيارة: «كيف كان الأمر؟».

تحدّث برانستاين عن الحفل إلى أن توقّف أمام قاعة «لينكوين». شكره ماريو على إقلاله إلى هنا، فقال برانستاين: «سآتي لإقلالك الليلة في السابعة».

نظر إليه ماريو من دون أن يفهم. أضاف برانستاين وهو يرفع يده اليسرى من فوق المقود، فيما يقوّس حاجبيه: «سنتناول الفيتوتشيني التي تطبخها تينا، وستكون مناسبة لنتحدّث لبعض الوقت بهدوء».

حاول ماريو إخفاء نسيانه لأمر العشاء.

قال: «مرّ وقتما تحبّ. لن أخرج من البيت طوال المساء».

بعد أن فرغ من تدريس المحاضرة، التي عجز هذه المرّة عن مدّها لخمسين دقيقة وأنهاها قبل دقّ الجرس، توجّه إلى المكتب الرئيسي للقسم. عثر في الصندوق البريدي على رسالة موقّعة من سكانلان تدعوه إلى التحدّث معه في أقرب وقت

ممكن.

بينما يستعدّ لدقّ باب مديره، سمع خلفه صوت جويس.

قالت: «الأستاذ سكانلان مشغول».

استدار ماريو، فابتسمت السكرتيرة بشفتيها المطليّتين بلونٍ أحمر صارخ يتعارض مع شعرها الأشقر الذي يشبه القشّ وبياض وجهها الشاحب. سحب شريطٌ حريري أزرق عليه بقع بيضاء شعرها عند قمة رأسها تقريباً، فشكّل شيئاً يشبه ذيل الحصان، فيما أضفى حاجباها الخاليان من الشعر على مظهرها طابعاً مُبهماً كأنها أحد أنواع الأسماك أو الزواحف. لم تمنحه فرصة واحدة لمقاطعتها حين أبدت اهتمامها بكاحله، إذ ظلّت تردّ على الأسئلة التي تطرحها بنفسها وهي تحرّك يديها كثيراً وببطء. تحدّثت عن إحدى صديقات ويني التي تعرّضت لمشكلة مماثلة. بعدئذٍ، غيّرت الموضوع وتحدّثت باستفاضة عن ويني نفسها، وأنها قُبلت في جامعة «آيوا»، وأنها صغيرة جدّاً على الذهاب إلى الجامعة، وأنّ لديها خليلاً اسمه مايك. أكّدت في إحدى اللحظات أنهم يمضون في إجراءات إصلاح تدفئة مكتبه، على الرغم من أنّ الأمر لن يكون ضروريّاً حتى مجيء الشتاء. فقط، حينما سألته عن أولادي، شعر ماريو بأنّ السكرتيرة تنتظر هذه المرة ردّاً. مع ذلك، لم يتمكّن من التيقّن من الأمر، فلحظتئذٍ تحديداً انفتح باب مكتب سكانلان. خرج بيركويكس منه بوجهٍ مفعم بالطاقة. امتدّت شفتاه لترسما ابتسامة رضا صلبة، وأمام أنظار سكانلان، حيّا ماريو بإيماءة رياضية.

قال بطريقة مرحة أو بضيقٍ مصطنع: «لقد فوّتّ بالأمس حفلاً في بيتي. الذنب يقع عليّ. نسيت إخبارك في وقت سابق. بعدئذٍ قرعنا بابك، لكنّنا لم نجدك!».

تحجّج ماريو: «خرجت لقضاء بعض الحوائج وعدت متأخراً».

ثم فكّر فوراً أنه لم يودّ أن يقول هذه العبارة، فحاول أن يضيف شيئاً ما، لكنه عجز، إذ استبقه بيركويكس قائلاً: «إلى اللقاء».

ثم أضاف وهو يوجّه حديثه إلى ماريو: «دعنا نرَ ما إذا كنا سنحظى ببعض الوقت في أحد الأيام كي نجلس ونتحدّث قليلاً بهدوء».

وجد ماريو نفسه يفكّر، ربما من دون سبب واضح: «كأنه كابوس».

دخلا المكتب. جلس سكانلان وراء مكتبه وماريو على أحد المقاعد المصنوعة من جلد الظباء المدبوغ. ألقى سكانلان بعض التعليقات غير الضارّة، بل ربما الودودة، فيما يداعب بهدوء لحيته الشبيهة بلحية التيس، وهو يبتسم بصورة تجيش منها النفس. تشتت انتباه ماريو للحظة وهو ينظر إلى لافتة معلّقة ببراغي فوق الجدار الواقع في نهاية المكتب، تُعلن عن معرض استرجاعي لأعمال بوتيرو. سمع سكانلان وهو يتنحنح لتسليك صوته.

قال بعد أن انمحت ابتسامته المنفّرة: «لن أعطّلك كثيراً. أفضّل أن أبلغك بالوضع شخصيّاً».

بعدئذٍ بلحظة، استأنف حديثه بنبرة رسمية: «ستجتمع لجنة القسم الأسبوع المقبل. أعتزم عرض حالتك كي نحاول بيننا جميعاً أن نعثر على حلّ، لا في هذا الفصل الدراسي بالطبع، وإنما في الفصل المقبل أو العام المقبل. لا يُمكنني أن أؤكّد لك التوصّل إلى حلّ، لكنّنا بالطبع سنحاول، بل إنني بالفعل من طرفي أعمل فعلاً على هذا الأمر».

توقّف ثم تنحنح مرّةً ثانية، واستند بظهره إلى مسند مقعده: «من ناحية أخرى، وهذ مسألة ترتبط بما سبق بصورة وثيقة، أفترض أنك على دراية أكثر من بقيّة الأساتذة، بالجهد الذي أبذله لرفع مستوى القسم منذ تولّيت مسؤوليته. لا أريد أن أهذي وأسرح بخيالي بخصوص أنّ الجميع مصرّون على تحقيق المسعى نفسه. يتعلّق الأمر فعلاً بتحويل القسم إلى ملتقى للصفوة. لن يعود أمرٌ مثل هذا إلا بالنفع على الجميع. لكن من الواضح أنه لا يكفينا فقط أن نمضي في النواحي الإدارية المُحدّدة للحصول على زيادات في الميزانية تسمح لنا بالتعاقد مع أساتذة جُدد، بل من الضروري أيضاً أن يكون المرء متطلّباً بشكل أكبر مع الأساتذة الموجودين هنا بالفعل، وأوّلهم نفسه. بما أنني مستعدّ لترجمة كلّ هذه النوايا الطيّبة إلى تدابير عملية، فإنني سأقدّم إلى اللجنة مشروعاً جديداً بخصوص لائحة القسم. إذا لم أكن مخطئاً، فإننا لن نواجه أيّ مشكلة في التصديق عليها. ما تسعى إليه هذه اللائحة،

بشكل جوهري، هو أن يُطبّق بحذافيره أحدُ الشروط الذي ظلّ حتى الآن مجرّد حبر على ورق. بمعنى آخر، لن يُجدّد عقدُ أيّ أستاذ لا يُظهر مستوى الأهلية المهنية والفكرية الذي يعتبره القسم مناسباً. أعرف أنّ هذا النوع من الإجراءات قد يبدو تهديداً، لكنّه في الواقع يسعى إلى أن يصبح دافعاً للكلّ».

استمرّ سكانلان في حديثه وهو يكافح بوضوح ليُكسب نبرة صوته طابعاً حياديّاً أو أكثر إلحاحاً: «الآن يا ماريو، إن لم أكن مخطئاً، فإنّ عقدك سينتهي في يونيو. ستجتمع اللجنة في الربيع في ظنّي، وبالتالي يتبقّى أمامك ستة أشهر، وهو وقت أكثر من كافٍ كي تُجهّز أو كي تُنهي صقل أيّ شيء عملت عليه خلال تلك الفترة، فثلاث سنوات من دون أن تنشر شيئاً فترة كبيرة. دعني أؤكّد أنّ هذا ليس تهديداً يا ماريو! أنا فقط أوضح لك مجرى الأحداث. خذ كلّ هذا كنصيحة من صديق يُقدّرك. اعمل يا ماريو! جهّز شيئاً، أيّ شيء، وأرسِله إلى أيّ مجلة أو قدّمه في أيّ مؤتمر، وسننتهي! جهّزه أيّاً كان موضوعه، لكنْ جهّزه وبسرعة. دعني أعترف لك: إذا لم تفعل هذا، فسيغدو صعباً أن أتدخّل أمام اللجنة لصالحك!».

مرّ برانستاين عليه في السابعة لإقلاله. مضيا عبر ساحة «لينكوين» وانعطفا يساراً عبر شارع «يونيفيرسيتي» وتقدّما حتى ضواحي شمال المدينة. لم يتحدّثا تقريباً أثناء الطريق. صفّا السيارة أمام بيت برانستاين، وهو مبنى من طابقٍ واحد، جدرانه بيضاء ونوافذه كبيرة وسقفه أخضر أملس، وتعتليه مدخنتان، إحداهما معدنية وصغيرة جدّاً، والأخرى حجرية وأكبر، ومستطيلة. تراخت فوقهما أفرع شجرة صفصاف، فيما قاد دربٌ من الحصى يقطع الحديقة إلى المرأب الذي تراءى طيفُه من وراء كتلة نباتية كثيفة.

دخلا إلى غرفة الطعام. وصل رنين الكؤوس وأدوات المائدة والأواني من المطبخ، وبالمثل رائحة معكرونة خفيفة. ظهرت تينا على الفور بشعر هائج وابتسامة مضيئة وهي ترتدي مئزراً بُنيّاً. فكّر ماريو في أنها جميلة. قبّل كلٌّ منهما الآخر.

قالت تينا: «سيكون العشاء جاهزاً في ظرف دقيقة». وبينما تلمع عيناها وهي تنظر إلى ماريو أضافت: «ستأكل أصابعك وراءه!».

ثم عادت إلى المطبخ.

قال برانستاين: «لدينا بعض الوقت لنشرب شيئاً ما، ما رأيك؟!».

أجابه ماريو: «دراي مارتيني».

حضّر برانستاين كأسين من الـ«دراي مارتيني» مع الثلج. ناول ماريو واحدة وجلس على المقعد الموجود أمامه.

سأله كأنه يستأنف محادثة قد توقّفت مؤخّراً: «كيف يمضي الموضوع إذاً؟».

- أيّ موضوع؟

- وضعك في القسم.

انزعج ماريو من الفظاظة، بل وربما التهوّر الذي تطرّق به برانستاين إلى هذا

الشأن، كأنه قد دعاه إلى العشاء ليتحدّثا عنه، فتساءل مرتبكاً: «ما مسعاه؟».

اعترف له ماريو: «سيّئ».

شعر فجأةً برغبة في التحدّث، وبينما يقول عبارته هذه وجد نفسه يُفكّر في المسألة للمرّة الأولى: «كيف ترغب في أن يكون الوضع؟ في الواقع، منذ جاء بيركويكس، صار من المستحيل أن تسوء الأمور أكثر من هذا».

- وما علاقة بيركويكس بهذا؟!

قال ماريو كأنه يُخاطب نفسه من دون نيّة للردّ على سؤال برانستاين: «لقد طردني من العمل تقريباً».

- هل طردك بيركويكس؟!

أجابه ماريو وهو يستأنف المحادثة: «لا. سكانلان. تحدّثت معه هذا الصباح. صرت أعرف الآن أنه لن يُجدّد عقدي في يونيو».

قال برانستاين باقتناع: «هذا غير ممكن. تقرّر اللجنة مثل هذه الأمور. لا يُمكن للّجنة أن تفسخ عقدك هكذا. يجب عليهم أن ينتظروا على الأقل حتى عطلة عيد الميلاد».

قال ماريو: «سيكون الأمر في عيد الميلاد أو في الربيع. لا فارق. أهمّ شيء أنّ القرار قد اتُّخذ بالفعل. يسيطر سكانلان على اللجنة، وستفعل اللجنة ما يريد أن يفعله. قال لي اليوم إنني متوسّط القيمة ولا أنشر بشكلٍ كافٍ، أو بمعنى آخر، إنني لا أليق بالقسم. استدعاني لإذلالي يا برانستاين وأيضاً ليحمي نفسه؛ ليتمكّن من الإفلات من العقاب حين يطردني من العمل، براحة ضمير تقريباً.. ما يغيظني أنه متهكّم!».

- إنه عمله.

- أن يكون متهكّماً؟!

- أن يعمل القسم وفقاً لمجموعة من القواعد.

- ولتحقيق هذا المسعى، عليه أن يفصلني؟!

- لتحقيق مسعاه، يجب أن يجعل هذه القواعد تُحترم.

- ها أنت ذا تبدأ في الحديث مثله.

ساد الصمت.

قال برانستاين في النهاية بنبرة استرضائية: «كلّ الأمور ستتحسّن».

أجابه ماريو بعد أن صار عاجزاً عن كبح الغضب الذي ينبض في صدغيه: «لا تكن أحمق يا برانستاين! لن يتحسّن أيّ شيء هنا لأنّ هذا الشيء ليس موجوداً أصلاً. في ظلّ هذا الوضع، سأرضى إن وصلت إلى يونيو من دون أن يخفّضوا راتبي مرّة أخرى».

دخلت تينا إلى غرفة الطعام وجهّزت لنفسها كأساً من الـ«مارتيني»، وذهبت لتجلس على ذراع المقعد الذي جلس برانستاين فوقه صامتاً، ولأنّ الصمت استمرّ سألت تينا: «ما الذي كنتما تتحدّثان عنه؟».

قال ماريو: «عن صديق مشترك: دانييل بيركويكس. منذ وصل إلى هنا وكلّ الأمور تبتسم لي. وقعت أولاً مسألة الكاحل، لكن انطلاقاً من تلك اللحظة لم يتوقّف الأمر. قبلئذٍ قبضت راتباً معيّناً، والآن أقبض ثلث هذا الراتب. قبلئذٍ، ظننت أنّ لديّ عملاً مضموناً، أمّا الآن فبتُّ أعرف أنني لن أستمرّ كثيراً فيه. قبلئذٍ، كان لديّ مكتبي الخاص، أمّا الآن فلديّ إسطبل يدعونه مكتباً فقط لكيلا يشعر الصينيّ والمجنون الآخر اللذان أتشاركه معهما بالإهانة!».

توقّف. نظر إلى الـ«مارتيني» وقطع الثلج التي طفت فوقه، ثم أضاف: «قبلئذٍ، كان لديّ امرأة أيضاً!».

قالت تينا برقّة: «لكن كان الوضع كأنها ليست لديك، وهذا أمرٌ مؤكّد: لم تُعِرها انتباهك قطّ».

لم يقل ماريو شيئاً. ظلّ يحدّق إلى الكأس ويهزّها بهدوء لتحريك الثلج. ازداد

انغراس برانستاين في مقعده، كلّما مرّ الوقت. بدا غير مستعدّ للخروج من صمته. تناولت تينا رشفة من الـ«مارتيني»، ومن دون أن تُبعد نظرتها عن ماريو سألت: «ما الذي حدث مع جينجر؟».

قال ماريو: «ظنّي أنها قد ملّت. في الحقيقة، لم تقدّم لي تفسيراتٍ كثيرة».

- لا تقل لي إنك تفكّر الآن في أن تُغرم بها.

سارع ماريو بالردّ وهو يرفع نظرته ويحدّق إلى تينا بتعبير خبيث أو ساخر لم تفهمه: «على الأرجح أنني أُغرمت بها قبلئذٍ، لكنني لم أعرف فحسب».

بدأت تينا حديثها بنبرة ربما يُمكن وصفها بالمنذرة: «اسمع يا ماريو! اعذرني على صراحتي، لكن لا بدّ أن يصبح شخصٌ ما صريحاً معك. تكون هذه الأمور جيّدة جدّاً حينما يحكيها شخص عمره يقلّ عن عشرين عاماً، لكنّها بدايةً من ذلك العمر تغدو مثيرة للشفقة، وهذا لكيلا أقول أموراً أسوأ. المراهقون والحمقى وحدهم من يصرّون على حبّ ما ليس لديهم وعدم حبّ ما لديهم. المراهقون والحمقى وحدهم لا يُقدّرون ما لديهم إلا حين يفقدونه».

توقّفت لحظة ثم تابعت: «أنت تعرف تمام المعرفة أنك جعلتَ جينجر تعاني كثيراً. ما فَعَلَته هو أعقل الأمور. أعترف لك: لو أنني في مكانها، لفعلت الشيء نفسه، مع فارق، أنني لم أكن سأنتظر كل هذا».

تدخّل برانستاين ليدعم تينا وهو يعتدل فوق المقعد ويضع ساقاً فوق الأخرى: «يبدو كأنك تظن أنّ الناس قد تآمروا ضدّك أو شيئاً من هذا القبيل. الأمر سخيف. تينا محقّة. لا تخطر هذه الأمور إلا على بال مراهق. بالنسبة إلى بيركويكس، سأقول لك شيئاً: أنا متيقّن من أنه يُقدّرك. بالنسبة إلى بقية الأمور، وهذه مسألة أقولها لك لأنني أيضاً أقدّرك، فعليك أن تحتذي به، وليس فقط من وجهة النظر الأكاديمية، فبيركويكس رجلٌ حيويّ ومفعم بالطاقة ومقدام، ويعرف كيف يرى الجانب الجيّد من الأمور واستخلاص فوائدها. للأمانة، أنا سعيد لأنّ مجيئه يبدو كهبّة هواء منعشة داخل القسم. بخصوص سكانلان، أنت تعرف رأيي. يرتبط الأمر بأنه ينفّذ العمل الذي

كلّف به بأفضل صورة ممكنة. سكانلان هو رئيس القسم وواجبه تحسينه، لأنه لو حدث العكس، فسيتضرّر الجميع».

اختتم برانستاين كلامه وهو يشدّد: «هكذا هي الأمور يا ماريو، ولا يُمكن فعل أيّ شيء بخصوصها».

كبح ماريو رغبته في الرحيل. ارتشف جرعة من الـ«مارتيني» الباقي في كأسه. فكّر للحظة في أنه يَمثل أمام محكمة لا تقدر أن تبلغه أو لا ترغب في إبلاغه بالتُّهم الموجّهة إليه. فكّر: «كأنه كابوس».

واصل برانستاين، الذي كان قد بدأ صبره ينفد من صمت ماريو: «على كلّ حال، لا يبدو لي الوضع خطيراً جدّاً. على الأقل، في الوقت الحالي. ما يجب فعله يا ماريو هو أن تشمّر عن ساعديك؛ أن تعمل. قل لي: منذ متى لم تنشر شيئاً؟ منذ عامٍ؟ اثنين؟ ثلاثة؟».

قال ماريو: «ثلاثة أعوام. ثلاثة أعوام وشهران لتحرّي الدقّة».

كرّر برانستاين وهو يرفع كتفيه وينظر إلى تينا: «ثلاثة أعوام!».

ثم نظر إلى ماريو ثانية: «بصراحة، لا أفهم كيف تشكو من سكانلان. بدلاً من الشكوى، يجب عليك أن تجهّز شيئاً، وأن تحاول نشره في أيّ مكان».

اعترف ماريو: «ليس لديّ شيءٌ جاهز».

قال برانستاين: «لن ينعقد مؤتمر الاتحاد قبل يناير. لا تزال أمامنا أربعة أشهر. لديك وقتٌ أكثر من كافٍ، ومن يقدّم شيئاً في مؤتمر الاتحاد يُمكنه أن يقدّمه في أيّ مكان آخر. يرتبط الأمر بالمساعي الحسنة يا ماريو، بأن تتحرّك. أنا متأكّد من أنّ سكانلان سيجد حلاً، إذا تحرّكت. كلّ ما يطلبه منك هو أن تقدّم له سبباً ليبحث عن الحلّ».

نهضت تينا وذهبت إلى المطبخ، ثم عادت بعد لحظة وجلست فوق الأريكة. قالت لتكسر الصمت: «ماريو، كلّنا نحاول مساعدتك!».

تحدّث ماريو قليلاً أثناء العشاء. لم يأكل تقريباً، وكأنّ توتّره انعقد في شكل حزمة سدّت حنجرته. نظر برانستاين إليه بخليطٍ من التعاطف والمودّة، واضطلعت تينا بإدارة دفّة المحادثة. تحدّثت عن أصدقاء مشتركين من إيطاليا، وعن منحةٍ قدّمها لها قسم الأحياء وعن العطلات.

حين انتهى العشاء، هنّأ ماريو تينا على الـ«فيتوتشيني». وعدها أيضاً بتكرار الزيارة.

أوصله برانستاين أمام بيته نحو العاشرة.

قال: «لن أتمكّن غداً من المرور عليك لإقلالك. ليس لديّ محاضرات ويجب أن أفعل بعض الأمور في البيت. أنت تعرف: أن يكون لدى المرء عائلة يشبه أن يدير المرء عملاً صغيراً».

أومأ ماريو برأسه وقال: «لا تقلق! تمرّ الحافلة من هنا بالضبط».

فتح الباب ليترجّل من السيارة، وحينئذٍ شعر بيدٍ فوق كتفه. التفت ووجد برانستاين يودّعه بطريقة تعني: «تشجّع. نحن نحاول أن نساعدك»، فاضطرّ ماريو إلى كبح رغبة عنيفة في أن يحطّم له وجهه.

لمّا انعطفت سيارة برانستاين عند الناصية، أشعل ماريو سيجارة وسار عبر شارع «ويست أوريغون»، بخطوات متعثّرة وهو يستند إلى عكازه. كان الحرّ رطباً ولزجاً، ونشرت مصابيح أعمدة الإنارة، التي اكتست بعفن جثث البعوض، ضوءاً واهياً أصفر فوق البلاط. وصل إلى شارع «ريس» وانعطف يساراً، ثم توجّه إلى ساحة «لينكوين» ودخل «ذا إيمباسي».

إنها حانة صغيرة شبه مظلمة وضيّقة يكسو الخشب جدرانها وأرضيّتها. اصطفّت يميناً مجموعة من الطاولات الخشبية المتتالية يغمرها ضوءٌ منبعث من المصابيح المعلّقة فوقها، فيما امتدّ المشرب يساراً ومعه مقاعد خشبية ومعدنية عديمة الظهر نبتت من الأرض كالفطريات، وامتدّت وراء المشرب مرآة تنسخ أجواء الحانة الدخانية، الخاوية تقريباً في تلك الساعة، إذ جلس شابّان يتحاوران عند طاولة تقع

قرب المدخل، فيما أطلق رجالٌ أجسائهم مصقولة أسهماً صغيرة فوق هدفٍ معلّق، وجلس رجلان ليشربا منفردين عند المشرب.

أسند ماريو العكّاز إلى المشرب وجلس إلى مقعد عديم الظهر وطلب الويسكي. لمّا جلبوه له أشعل سيجارة. لاحظ قرب الثانية عشرة والنصف، بعد ثلاث كؤوس من الويسكي، ونصف علبة «مارلبورو»، أنّ الحانة قد خلت إلا من نادلها، فسدّد الحساب وانصرف.

حين وصل أمام بيته، رأى إضاءة في شقة بيركويكس. صعد السلالم بحذر وهو يحاول ألّا تُطقطق. توقّف عند صحن السلّم، وأرهف سمعه وكتم أنفاسه. سمع موسيقا وبعض الأصوات التي لم يتعرّف عليها.

لمّا دخل فراشه، لاحظ أنه ثمل.

استيقظ في اليوم التالي وفمه جافّ وهو يشعر بوخزٍ خفيف جداً يشكّ صدغيه. أخذ قرصين للصداع مع عصير برتقال. حلق لحيته واستحمّ وقدمُه اليسرى ملفوفة في حقيبة بلاستيكية، ثم تناول إفطاراً اقتصر على فنجان من القهوة فحسب.

خرج من شقّته، وأثناء إغلاقها بالمفتاح سمع باب الشقة المقابلة ينفتح. استدار مندهشاً، فوجد أمامه، من دون أن يفهم في البداية، بيركويكس وجينجر. ابتسما ووجّها له التحيّة، وأعربا عن سعادتهما باللقاء بمبالغة كبيرةٍ اعتبرها ماريو في البداية سيّئة النيّة، ثم خلص لاحقاً إلى أنها طائشة. تمتم بشيءٍ ما وهو دائخ. استمرّ بيركويكس يتحدّث، فيما ينزل ثلاثتهم السلالم. توقّفوا عند المدخل المسقوف.

سألته جينجر بعد أن رسمت بفمها ابتسامة مثالية ثابتة: «هل أنت ذاهب إلى القسم؟ ما رأيك أن نوصلك؟!».

نظر إليها ماريو بعينين تعجزان عن التصديق وتكادان أن تحتضرا من وراء زجاج النظّارة. لم تنتبه جينجر أو ربما لم ترغب في أن تنتبه إلى نظرة ماريو. ربما كرّرت عرضها، لأنه أجاب: «لا يوجد داعٍ».

ثم كذب عليها بعدئذٍ: «سيأتي برانستاين ليوصلني فوراً».

استغلّ بيركويكس الصمت الذي انفتح بعد ردّ ماريو، ليُعرب بمودّة عن حزنه لأنهما لم يجدا لحظة للتحدّث بهدوء، على الرغم من كونهما جارين.

قال وهو يضع ذراعه المتملّكة فوق رقبة جينجر قبل أن يتركها تستقرّ فوق كتفها اليسرى: «خطرت لي فكرة. لماذا لا تمرّ على شقّتي هذا المساء ونشرب كأساً معاً؟!».

بحث ماريو من دون جدوى عن طريقة لرفض الدعوة، لكنّه لم يحظَ بالوقت الكافي، إذ قال بيركويكس وهو يفكّر من دون شك في أنّ صمت ماريو يعني موافقته: «حسناً، مُرّ عليّ وقتما ترغب! سأكون موجوداً في البيت طوال المساء».

ودّعته جينجر التي لم تتوقّف عن الابتسام: «إلى اللقاء يا ماريو، أراك في القسم!».

رآهما يبتعدان وكلٌ منهما يمسك بيد الآخر حتى وصلا إلى سيارة بيركويكس. لاحظ، وهو يحاول تجنّب التفكير في ما رآه للتو، أنها قد أمطرت طوال الليل. بدا الهواء نظيفاً وفاحت منه رائحة الأرض المبتلّة. تلألأت شمس التاسعة صباحاً وسط سماء شديدة النقاء قد انعدمت غيومها. التفت بيركويكس وجينجر لتحيّته بإخراج يديهما من السيارة، وهما يتقدّمان عبر شارع «ويست أوريغون».

استقلّ ماريو الحافلة. دخل «قاعة لينكوين». درّس المحاضرة المقرّرة له، واجتاز ساحة الكلّية. وصل إلى القسم ثم جمع بريده وحيًا جويس وفويتشيك وهيون. تحدّث برهة مع أولالدي، ثم استقلّ الحافلة مجدداً. تناول طعامه ونام القيلولة. مع ذلك، لم يتمكّن نشاطٌ واحد من كلّ هذه الأنشطة من دفع عقله إلى التوقّف عن اجترار ذكرى اللقاء الذي جمعه مع جينجر وبيركويكس، والموعد الذي تحدّد هذا المساء مع الأخير. يسهل تفسير الحدث الأول، لكن يستحيل عكسه. حاول نسيانه، لكنّه عجز لأنّ ابتسامة جينجر طفت فوق شفتي الطالبة الصهباء وشفتي جويس وفويتشيك وهيون وأولالدي. لا ينطبق الأمر نفسه على الحدث الثاني. أخبره حدسه بطريقة مُربكة بأنّ بيركويكس ربما يقدّم له من دون أن يعي فرصةً يجب عدم إهدارها، لكنّه تساءل: «فرصة لأيّ غرض؟».

حاول أن يرتّب أفكاره.

هل يجب عليه أن يذهب إلى الموعد؟ تكهّن بأنّ بيركويكس يرغب في أن يتحدّث معه عن جينجر، أو عن العلاقة التي تجمعهما، أو بدأت تجمعهما بناءً على المشهد الذي حضره صباح اليوم؛ أو عمّا حكته جينجر عنه؛ أو عن كلّ هذه الأشياء في الوقت نفسه. استبعد هذه الفكرة. لم يلاحظ أيّ دليل على الارتباك أو الاضطراب في سلوك بيركويكس، حينما فاجأه هو وجينجر صباحاً عند صحن السلّم، ولا حتى بعد توديعه. بالنسبة إلى الأمور الأخرى، أي معرفته بالروابط التي جمعته مع جينجر حتى لحظتئذٍ -وهو أمرٌ بدا غير محتمل إلى درجة كبيرة- فكان شبه متأكّد من أنه سيفضّل نسيان هذه الروابط، أو عدم الاهتمام بها على الأرجح. لمّا دخل «قاعة لينكوين» وحين درّس المحاضرة وحين سار عبر ساحة الكلية، بدأ يتصوّر احتمالية

أخرى تقول إنّ برانستاين ألمح لبيركويكس أو حكى له أنه -أي ماريو- يُحمّله بكلّ سخافة ذنب إعصار التعاسات الذي سقط فوقه، فشعر بيركويكس بشكلٍ ما أنه مسؤول وأراد أن يقدّم له تفسيراً، أو ببساطة أن يتصالح معه ويكسب ودّه. استبعد أيضاً هذه الفرضية. فكّر: «إما أنني أجهل العالم، وإما أنّ الرجال مثل بيركويكس لا يعرفون معنى الشعور بالذنب». من جانب آخر، ما مصلحة المستأجر الجديد في كسب مودّته، إذ كان أصلاً لا يتخيّله عدوّاً محتملاً؟ لاحقاً، فكّر في أنّ بيركويكس يريد أن يدهسه إلى الأبد وأن يُذلّه، باستعراض سيرته الذاتية ولُطفه وطاقته الفكرية وحيويّته المفرطة.

بعد أن نام القيلولة، حاول مجدّداً أن يرتّب أفكاره. أعاد النظر في الفرضيات التي كوّنها، وغامر بتخيّل فرضيات أخرى أفضت كلّها إلى نتيجة غريبة؛ ألا وهي انمساخ كلّ واحد من الدوافع التي ربطها بعقل بيركويكس حين حدّد الموعد، إلى دوافع أخرى متنوّعة لكيلا يحضره. قاده هذا إلى عدم تنحية احتمالية بدت له بعيدة في إحدى اللحظات، وهي أنّ بيركويكس يرغب فقط في التعرّف إليه والتحاور معه، كما قال بالضبط عند المدخل المسقوف، فهما في نهاية المطاف لم يحظيا فعلاً بفرصة لتبادل الانطباعات. خلص بحسم مفعم برضاه عن الدقّة المنطقية الصلبة التي تعامل بها مع استدلالاته إلى شيء واحد: «الأمر الوحيد المؤكّد أنّ بيركويكس سيفكّر أنني لا أتجرأ على مواجهته بمفردي، إن لم أذهب إلى الموعد».

قرع باب الشقة المقابلة بعد أن تجاوزت الساعة الثامنة. تأخّر بيركويكس في فتح الباب. لمّا فتحه وجده يرتدي بنطالاً رياضيّاً داكناً وقميصاً عليه توقيعات فنّانين معروفين وشعار معهد شيكاغو للفن، وحذاءً صوفيّاً، وهو يمسك في يده اليسرى بصحيفة مثنيّة. انتبه ماريو إلى أنّ عينيه تعكسان نسيان الموعد. ابتسم بيركويكس بصورة مبالغ فيها، ربما لإخفاء الأمر، أو كطريقة للتحيّة.

قال وهو يفسح له الطريق: «ادخل يا ماريو، ادخل!».

ثم اعترف على الفور: «في الحقيقة، نسيت موعدنا. تتشابك الأشياء داخل رأسي، مع كلّ الأمور التي يجب عليّ فعلها، لكن دعنا من هذا...».

واصل بيركويكس حديثه، لكنّ ماريو لم ينصت إليه، فبمجرّد أن دخل الشقّة، بدأ يشعر بانزعاج داخل أحشائه، تُرجم إلى أحد أشكال الدوار، كأنّ حفرةً قد انفتحت داخل معدته. جلس على الأريكة وترك العكاز جانباً. وضع بيركويكس في يده كأساً من الويسكي. لم يطلبه حسبما يتذكّر. أمسكه برخاوة، وتحرّك على الأريكة. شاهد مضيفه وهو يُحرّك يديه ويضحك ويقوّس حاجبيه، لكنّه عجز عن التركيز في ما يقوله. انسابت كلمات بيركويكس داخل أذنيه من دون أن تترك أثراً واحداً. فرك عينيه ومنبت أنفه وجبهته. حينئذٍ فقط، بدأ يتعرّف باندهاش على الطاولة البيضاء والمقاعد المعدنية واللوحات ذات الطابع التكعيبي المبهم، وإعلان معرض أعمال تولوز لوترك في إحدى صالات عرض تورينو. تعرّف إلى جوار التلفاز على مشغّل الأسطوانات، والطاولة الصغيرة الشفّافة المكوّنة من جزأين، ونسخة لوحة هوكني المعلّقة بمسمارٍ معقوف فوق الجدار، والأريكة كريمية اللون التي يجلس عليها، والمقعدين اللذين لهما اللون نفسه. تعرّف أيضاً على مجموعة الأشياء التي تتكدّس داخل الخزانة الزجاجية: النرجيلة الجزائرية، والمسدّسات العتيقة، والساعة الرملية، والفرقاطة الصغيرة الموجودة داخل زجاجة نبيذ «كيانتي»، والتماثيل الفخارية والتمثال العاجي.

شعر بقشعريرة باردة في ظهره.

بينما هو دائخ، تفهّم فجأةً بسهولة كبيرة، أنّ شقة بيركويكس نسخة مثالية، وإن كانت معكوسة، من شقّته. إنها الانعكاس الفاسد لها في مرآة بغيضة. شعر بالخوف وبيديه تتعرّقان وبقلبه يخفق بجموح داخل حنجرته. حاول أن يسيطر على أعصابه وأن يُلملم شتاته. ابتكر جملة، لمواجهة الموقف: «لا ترتكز الشجاعة على عدم الخوف، فهذا هو التهوّر، بل إنّ الخوف ومكافحته والتغلّب عليه هو ركيزة الشجاعة». بعد أن أراحه تفكيره، أو ربما بعد أن منحه بعض القوّة، أجبر نفسه على متابعة مونولوج بيركويكس المنفرد، الذي لم يتوقّف عن التحدّث وتحريك يديه في المقعد المقابل له. حسب ماريو بشكلٍ ضبابي في إحدى اللحظات أنه تفهّم أنّ بيركويكس يناقش مشكلة مرتبطة بتكوين مقاطع الكلمات في الإيطالية، فظلّ يومئ برأسه. تفهّم بعد برهة أنه لم يعد قادراً على التحمّل، فتحجّج بشعوره بصداع مفاجئ ونهض من فوق

الأريكة من دون أن ينظر إلى بيركويكس، فيما استقرّ كأس الويسكي فوق الطاولة من دون أن يشرب منه شيئاً، وتوجّه نحو المخرج.

سمع بيركويكس يقول له وعلى وجهه ابتسامة مثالية وهو يمدّ إليه رزمة من الأوراق المنسوخة: «خذ. اقرأ هذا حين تحظى ببعض الوقت! إذا وددت يُمكننا أن نتحدّث بخصوصه في يوم آخر!».

بعدئذٍ، بينما يسند يده بصورة أخوية فوق كتف ماريو أضاف: «واعتنِ بهذا الألم، فأغبى الأمور تعقّد حياتنا أحياناً!».

لمّا رفع سماعة الهاتف، لاحظ أنّ يديه ترتعشان. اضطرّ أن يطلب الرقم عدّة مرّات.

- سيّدة ووركمان؟ أنا ماريو روتا.

بدا صوت السيّدة ووركمان عميقاً وغارقاً في النوم: «ما الذي تريده؟».

- أتصل لأتحدّث معكِ بخصوص المستأجر الجديد.

- ما مشكلة المستأجر الجديد؟

أجابها ماريو بصوتٍ خافت: «لديه أثاثي نفسه».

ساد الصمت.

سألها ماريو: «سيّدة ووركمان؟ هل أنتِ هنا؟!».

دمدمت السيّدة ووركمان كأنها تتحدّث مع نفسها: «ألا تخجل من الاتصال بي في هذه الساعة لتقول لي أمراً كهذا؟».

- ما الذي تقولينه؟!

أجابت السيّدة ووركمان بصوت لطيف: «ألا يبدو لك الوقت متأخراً على الاتصال بأحد هاتفيّاً؟!».

ثم تابعت بنبرة تأنيب خفيفة: «أعتقد أنني قلت لك أكثر من مرّة إنني أنام مبكراً،

وأن تحاول الاتصال بي في أوقات معقولة؟ أم أنك كنت تثمل؟!».

لم يتأخر ماريو في الردّ عليها بصوت منقبض من فرط جزعه: «لا يا سيّدة ووركمان. أؤكّد لك أنني لم أثمل. لكنّ الأمر فظيع. ألا تدركين؟! لدى بيركويكس لوحاتي نفسها وأريكتي ومقاعدي! كلّ الأمور واحدة!».

نعقت السيّدة المسنّة بغضب: «وما الذي تريد مني أن أقوله لك؟! ربما له ذوقك نفسه. سيكون هذا أمراً مؤسفاً أصلاً. أو ربما اشتراها من المكان نفسه. لا أعرف يا رجل! كيف تريدني أن أعرف!».

كاد ماريو أن يصرخ: «لكنّها الأشياء نفسها *بالضبط*!».

ثم استعطفها فوراً: «سيّدة ووركمان، لا بدّ من فعل شيء!».

أجابته السيّدة ووركمان: «بالطبع، ادخل فراشك ونَم بعمق!».

استيقظ عدّة مرّات وسط الملاءات المتشابكة وهو غارق في عرقه. تخيّل في إحداها أنّ الزيارة التي نفّذها في اليوم السابق إلى شقة بيركويكس مجرّد حلم، وتمنّى بشدّة في مرّة أخرى -وهو يدخّن سيجارة وسط أرقه وينظر عبر نافذة المكتب إلى الشارع حيث ألقت مصابيح أعمدة الإنارة ضوءها الواهي- أن يكون هذا الأسبوع مجرّد كابوس. تمكّن في إحدى اللحظات من النوم، بعد أن أراحه أمل أن كلّ الأمور ستختلف بدايةً من الغد.

استيقظ في اليوم التالي وداخله يقين بأنّ كلّ الأمور ستظلّ كما هي. كانت نحو السابعة صباحاً وتسلّل من النافذة ضوء الصباح الشاحب ليضيء الغرفة. على الرغم من أنّ المشهد الذي انفتح أمامه ضايقه -لأنه يوم سبت يخلو من أيّ نشاط يشغل وقته- نهض فوراً وحلق لحيته واستحمّ، وأفطر بفنجان من القهوة فحسب. سعى إلى أن يُبعد عن عقله القُرب الكريه لشقة بيركويكس على الجانب الآخر من صحن السلّم. حاول أن يقرأ لكنّه عجز عن التركيز، فتصفّح بسقم رزمة الأوراق المنسوخة التي سلّمها له بيركويكس في اليوم السابق. إنه مقال مذيّل بتوقيعه عنوانه «المقطع في النظرية النطقيّة، مع إشارة خاصة إلى الإيطالية». ترك رزمة الأوراق المنسوخة فوق الأريكة وتوجّه إلى المكتب، حيث مكث برهة ليرتّب أوراقه. لم يجد شيئاً يفعله في التاسعة والنصف. فكّر وهو يُشعل سيجارة: «لو أنني على الأقل قادر على الخروج للركض». حينئذٍ فقط تذكّر أنه قد مرّ أسبوع تقريباً على تجبير كاحله. تذكّر كلمات الطبيب: «عُد في غضون أسبوع». طلب سيارة أجرة بالهاتف، وبينما ينتظرها في المدخل المسقوف، ابتهج لأنه عثر على شيء يشغل به صباحه. ابتهج أيضاً من الاحتمالية المجرّدة للتخلّص من الجبيرة والعكاز والعرج الذي أذلّه طوال الأسبوع.

توقّفت سيارة الأجرة أمام الساحة الأسفلتية التي يحوطها العشب التي صفّ ماريو عندها سيارته منذ أسبوع. ظلّت سيارة «بويك» المستعملة في مكانها، وشعر ماريو حين رآها بنوعٍ من الحنين.

دخل المستشفى. عثر في نهاية ممرّ جدرانه شديدة البياض على قاعة تضمّ

صفوفاً متعدّدة من المقاعد، وبعض السجاجيد ونضداً تجلس وراءه ممرّضة لها وجهٌ محمرّ ويدان مكتنزتان. تعرّف عليها. انتظر أن تنتهي الممرّضة من الردّ على مكالمة هاتفية، وهو يستند بكوعه إلى النضد. لمّا أغلقت الخطّ، التفتت إلى ماريو وسلّمته استمارة.

قال ماريو مبتسماً، لأنه وثق بأنّ الممرّضة ستتعرّف عليه وتوفّر عليه عناء هذا الإجراء: «لا أعرف ما إذا كنتِ تتذكّرين، لكنني كنت هنا منذ أسبوع و...».

قاطعته الممرّضة فجأةً: «املأ الاستمارة من فضلك!».

ثم أضافت بصوت أخفت: «ليتني كنت أقدر على أن أتذكّر كلّ من يمرّون من هنا!».

ملأ ماريو الاستمارة وسلّمها إلى الممرّضة، فوجّهته بالإشارة إلى صفّ المقاعد الواقع أمام النضد وطلبت منه الانتظار. جلس ماريو على مقعد وترك إلى جواره حقيبة كان قد احتاط ووضع فيها فردة حذاء وجورباً من النوع نفسه لفردتَي الحذاء والجورب اللذين ارتداهما في قدمه اليمنى. تصفّح أعداداً قديمة من إصدارات «نيوزويك» و«ديسكڤري» و«تراڤيل أند ليجر». لاحظ مرّتين من دون تركيز كبير، أنّ الممرّضة أطلّت من وراء النضد لتنظر إليه، فابتسم، لكنّ الممرّضة غاصت مجدّداً داخل مغارتها. سمعها تتحدّث عبر الهاتف، بصوت خافت. هُيِّئ له أنه سمع اسم بيركويكس في إحدى المرّات. فكّر باشمئزاز تقريباً: «ما من طريقة للتخلّص منه». شعر مجدّداً بعقدة من الجزع تتشكّل في حنجرته، وتعرّقت يداه مرّةً ثانية. حينئذٍ، فكّر في أنه منذ دخل المستشفى لم يرَ أحداً سوى الممرّضة ذات الوجه المحمرّ. لم يرَ أطبّاء أو مرضى أو ممرّضات أخريات. اختلج. فكّر بسخافة في أن يعود إلى المنزل لينزع الجبيرة بنفسه. بعد لحظة، سمع ممرّضة تنادي عليه من الجانب الآخر من القاعة باسمه وتطلب منه أن يمضي وراءها.

دخلا غرفة تفوح برائحة النظافة واليود والضمادات. وجّهته الممرّضة كي يرقد فوق الفراش الموجود في منتصفها. أزالت الجبيرة من فوق كاحله وفحصته. لاحظ ماريو، تحت حزمة الضوء المنحرف التي سقطت فوقهما ظلّاً كثيفاً لشعيرات تُلطّخ الجزء العلوي من شفتيها. تفهّم أنها الممرّضة نفسها التي تعاملت معه الأسبوع

الماضي. اعتدل في جلسته قليلاً، وهو يستند إلى كوعه، ونظر إليها بتوق، كأنه يبحث عن إشارة على تعرّفها عليه في عينيها. ابتسمت الممرّضة ببرود وقالت: «سيفحصك الطبيب فوراً».

دخل الطبيب بعد لحظة، بشحوبه وملامحه الشرقية وصغر حجمه وعصبيّته. لم يندهش ماريو من أنه طبيب الأسبوع الماضي نفسه. رقد مجدّداً فوق الفراش، وهو يشعر بضغط أصابعه الفاحصة في عدة نقاط من قدمه. حاول أن يسترخي وألّا يُفكّر في شيء. بينما ينحني الطبيب فوق كاحل ماريو، دقّق بنظره، فازداد ضيق عينيه حتى صارتا كشقّين.

سأله الطبيب وهو يضغط بخفّة فوق مشط قدمه: «هل يؤلمك؟».

نهض ماريو مجدّداً. لاحظ أنّ تورّم كاحله اختفى. كشف الشحوب المصفرّ وبقع العفن التي اغمقّ جلده بسببها عن وجود الجبيرة سابقاً. راقبتهما الممرّضة من على مسافة معقولة وهي تبتسم.

كرّر الطبيب سؤاله: «هل يؤلمك؟».

أكّد ماريو: «لا. لا يؤلمني».

تمتم الطبيب: «مممم».

- ما الأمر؟

أكّد الطبيب وهو ينهض، بينما يتحوّل شقّا عينيه إلى شكلين بيضاويين خضراوين: «الكاحل بخير!».

ثم ابتسم وتوجّه إلى الحوض الواقع عند طرف الغرفة الآخر، وغسل يديه.

سأله ماريو: «بالكامل؟!».

أجابه الطبيب فيما يلتفت ويجفّف يديه بمنشفة: «بالكامل».

- هل يمكنني أن أخرج للركض غداً؟!

التفت الطبيب لينظر إلى عينيه. ابتسم، هذه المرّة بخبث، ثم وجّه نظرته نحو الكاحل القذر العاري المتعارض مع بياض الملاءات.

غامر قائلاً: «يُمكنك، لكن من الأفضل أن تنتظر إلى يوم الاثنين!».

غسل ماريو قدمه بتسرّع، في ظلّ رغبته في أن يخرج من المستشفى في أقرب وقت، أمام ابتسامة الممرّضة الثابتة، ثم ارتدى الجورب وفردة الحذاء. اجتاز القاعة في رفقة الممرّضة، ومن بعدها الممرّ، ووصل إلى الباب. بينما يستعدّ للخروج، أوقفته المرأة وهي تُمسكه من ذراعه. تفقّدت طرفَي الممرّ، ثم نظرت إلى ماريو بطريقة غريبة وابتسمت، وهمست له: «تعرّفتُ عليك. عرفت أنك ستعود!».

وقبل أن تقترب الممرّضة لتقبيله، فكّر ماريو: «الآن سأستيقظ».

خرج ماريو روتا ليركض في الثامنة من صباح يوم الاثنين. لاحظ فوراً هالة ضبابية تطمس ملامح الشارع. بدا وجود البيوت الواقعة أمامه والسيارات المصفوفة إلى جوار رصيف المشاة ومصابيح أعمدة الإنارة مهزوزاً وضبابياً. أدّى بعض حركات الإطالة لذراعيه وساقيه فوق مستطيل العُشب الصغير الذي يمتدّ أمام بيته، محاولاً ألّا يضغط على كاحله. فكّر: «لقد حلَّ الخريف». حينئذٍ، تذكّر شيئاً وأوشك على الابتسام. عاد إلى بيته ثم خرج مجدّداً بعد لحظة؛ بعد أن ارتدى نظّارته هذه المرّة. انطلق ماريو ليركض، بعد تبدُّد الضباب، عبر درب البلاط الرماديّ الواقع بين الرصيف والحدائق النيّقة التي تصطفّ أمام البيوت وتحوطها أحواض زهور وأسيجة خشبية. ركض في البداية بحذر، بخوف تقريباً، من دون أن يضع حملاً تقريباً على قدمه اليسرى. بعدئذٍ، لمّا لاحظ أنّ كاحله لا يؤلمه، سارع خطاه.

كانت الشوارع خاوية. لم يرَ خلال أوّل خمس دقائق من الركض سوى شابّة تحتبي الأرض إلى جوار شجيرة نعمان في الحديقة الخلفية لـ«الكنيسة الأولى للمسيح العالِم»، لمّا انعطف يميناً عبر شارع «ماكولو». استدارت الفتاة، فكشفت ابتسامتها الورعة عن أسنانها. ظنّ ماريو أنه مُلزم بردّ تحيّتها، فابتسم. تقاطع طريقه لاحقاً، وهو في شارع «بنسيلفانيا»، مع رجل شعره شائب يرتدي بنطالاً قصيراً وقميصاً أسود. كان يركض في الاتجاه المعاكس ولديه مشغّل شرائط متّصل بسمّاعات ومُثبّت في حزام حول خصره. بدا من تعبيرات الرجل أنه يُركّز في الأزيز الصادر منها. بعدئذٍ، تقاطع طريقه مع شاحنة بريد، ومُسنّ أسود ذي خطوات هرمة وساقين مقوّستين يستند إلى عكّاز، وشابّة ذات ملامح شرقية جادّة، وعائلة تتناول إفطارها بصخب تحت مدخل مسقوف، وسط ضحكات وتحذيرات أبوية. بدت المدينة، حين سلك شارع «ويست أوريغون» وهو عائد، كأنها قد استعادت نبضها النهاري.

حينئذٍ، رأى حوض زهور الداليا الذي التوى عنده كاحله يوم الاثنين في الأسبوع الماضي. لم يفكّر في شيء.

وصل إلى بيته يلهث ويتعرّق وهو سعيد تقريباً. استحمّ وحضّر إفطاره المكوّن من عصير درّاق وبيض مخفوق مع لحم مقدّد وخبز محمّص وقهوة بالحليب. تناوله بشهيّة وهو يستمع إلى الأنباء في المذياع. لمّا خرج من البيت قال إنّ التدريب البدني مردوده جيّد عليه، إذ أبعد عنه شعور القلق، وربما أيضاً الخوف. شعر أنّ معنوياته مرتفعة.

في التاسعة والربع، صفّ سيارته الـ«بويك»، أمام «مبنى اللغات الأجنبية». أخذ الحافظة الجلدية من على المقعد الأيمن ودخل المبنى. كانت القاعة شبه خاوية، إلا من شباب قليلين مبعثرين فوق الأرض المفروشة بالموكيت، أو مستندين فوق الجدران، إمّا يدرسون وإمّا ينعسون انتظاراً للمحاضرة المقبلة.

ركب المصعد بمفرده. لمّا وصل إلى المكتب المركزي للقسم، وجد برانستاين وسوينشيك يتحدّثان بصوتٍ خفيض. توقّفا عن الحديث لمّا لاحظا وجود ماريو. التفتا نحوه ووجّها له التحيّة. بعد تعليق عابر حول الجوّ وآخر حول ضجر عطلات الأسبوع، أو ربما عن مؤتمر «جمعية اللغويّين» -وهي مسألة لم يُعِرها ماريو انتباهاً كبيراً- وصل ماريو إلى صندوق بريده. أخذ ظرفاً وفتحه: كان سكانلان يرجوه أن يذهب ليتحدّث معه على الفور. فكّر مستسلماً: «لقد حانت اللحظة».

دقّ مباشرةً على باب سكانلان لأنه لم يرَ جويس. قال: «تفضّل!».

جلس سكانلان وراء مكتبه. لم ينهض. أشار بإيماءة كي يجلس ماريو أمامه، فجلس ماريو. أنار ضوء الصباح الغرفة، والجدران البيضاء، ومقاعد جلد الظباء، والمكتب المغطّى بالأوراق، والملصق الدعائي الذي يعلن عن معرض استرجاعي لأعمال بوتيرو، وعينَي سكانلان الداكنتين الذكيّتين، من وراء زجاج نظّارته.

داعب سكانلان لحيته ورمش. قال بصوتٍ هادئ: «حسناً يا ماريو، أفترض أنك قادر على أن تقدّم لي تفسيراً!».

نظر إليه ماريو بعينين تعكسان انعدام فهمه، وسأله: «عن ماذا؟!».

ظلّ سكانلان يحدّق إليه للحظة، ثم رمش وتنهّد. بعدئذٍ، فتح درج مكتبه وأخرج

ورقة وناول ماريو إيّاها. قرأها. أبلغ فيها طلّاب علم النطقيات في الصفّين الأول والثاني رئيسَ القسم بأنّ الأستاذ المسؤول عن تدريس المنهج لم يَمثُل في أيّ محاضرة منذ بدء العام الدراسي.

قال ماريو وهو يعيد الورقة إلى سكانلان، فيما يشعر بدغدغة رضا خفيفة في معدته: «ما الذي تريدني أن أقوله؟ اسأل بيركويكس!».

استفهم سكانلان وهو يقطّب جبينه: «من؟».

كرّر ماريو: «بيركويكس، فهو المسؤول عن التدريس لهذين الصفّين».

جأر سكانلان بغضب، ونهض وهو يضرب بيده فوق المكتب: «هل جننت أم ماذا؟! هل يمكنني معرفة من هو بيركويكس بحقّ الشيطان؟!».

لم يعرف ماريو كيف يردّ، فبدا ما قاله كسؤال تقريباً، إذ قال بارتباك: «أستاذ علم النطقيّات الجديد».

نظر إليه سكانلان بعينين مندهشتين، ثم قال في النهاية وهو يكبح الغضب الذي ارتعشت يداه بسببه: «اسمع يا ماريو! أؤكّد لك أنني قادر على تفهّم محاولتك أن تزيح المسؤوليات من فوق كاهلك ليحملها شخص آخر. إنه تصرّف دنيء، لكنني قادر على تفهّمه، لكن ما لا يدخل رأسي هو محاولتك أن تعتبرني أحمق. هل تظنّني أحمق أم ماذا؟!».

توقّف، ثم تنفّس بعمق، فأشار نحو الباب بإصبع مُحذّرة، وأضاف: «والآن اسمع ما سأقوله جيّداً: إن لم تخرج من مكتبي في هذه اللحظة وتتوجّه لتدريس هذين الصفّين من دون أن تصلني شكوى واحدة بخصوصك، أقسم لك إنني سأمزّق الآن عقدك وسألقي بك في الشارع. لا أعرف ما إذا كان كلامي واضحاً!».

نهض ماريو وخرج من المكتب. ظلّ سكانلان ينظر إلى الباب وهو يقف بتأهّب. بعدئذٍ، جلس وداعب لحيته بهدوء. فحص الأوراق الموجودة فوق الطاولة، وترك بعض التوقيعات. بعد لحظات، رفع نظرته ورمش، ثم غمغم بشرود وهو يحدّق إلى نقطة وسط الهواء: «بيركويكس. بيركويكس».

سار ماريو بسرعة عبر الممرّ من دون أن يُحيّي أحداً. وصل إلى المكتب وأخرج بيدين مرتعشتين سلسلة المفاتيح. اختار واحداً. حاول فتح الباب، لكنّه لم ينجح. حاول تصفية ذهنه. بحث عن المفتاح الذي انطبع عليه رقم 4041، المتماشي مع رقم المكتب، لكن لم يُثمر مجهوده عن شيء. لم يظهر المفتاح. لاحظ فوراً أنّ الباب ينفتح من الداخل. ارتسم طيف مشوّه لأولالدي. وسط إضاءة المكتب الهزيلة. ابتسم بإيماءة رسمت أخاديد من التجاعيد في جبهته، وأظهرت للعيون أسنانه المبقّعة بالنيكوتين.

قال والإيماءة نفسها على وجهه: «حالفك التوفيق هذه المرّة أيّها الشاب، لكن خُذ حذرك، ربما في المرّة المقبلة لن تحظى به!».

أجابه ماريو بسرعة، من دون أن يفكّر في أنه يقول ردّه وهو خائف تقريباً: «ليس لديّ فكرة عمّا تتحدّث عنه».

قال أولالدي: «أنت تعرف تماماً ما أتحدّث عنه. لكن هذه مشكلتك أنت وحدك. أنت في عمرٍ كافٍ لمعرفة ما يُلائمك، لكن لا بدّ أنك أدركت على الأقل أنّ أغبى الأمور تُعقّد الحياة أحياناً».

لم يقل ماريو شيئاً. عاد أدراجه عبر الممرّ. حين مرّ أمام مكتب بيركويكس توقّف. نظر يميناً ويساراً عبر الممرّ وبحث في سلسلة مفاتيحه، فعثر على المفتاح الذي انطبع فوقه رقم 4043. فتح الباب، فتعرّف على الكتب المتراكمة فوق الطاولة والأرفف والثلّاجة المحمولة وصناديق الورق المقوّى الفائضة بالورق ومنافض السجائر القذرة، والفوضى العامة والرائحة المكتومة. تفهّم أنّ كلّ أغراضه لا تزال هناك.

درّس ثلاثة صفوف.

لمّا عاد إلى البيت، أجرى مكالمة.

- سيّدةووركمان؟

- أجل.

قال ماريو: «أنا ماريو روتا. أتصل بك بخصوص شأنٍ حسّاس».

- قل لي.

- يرتبط بالمستأجر الجديد.

ردّدت السيّدة ووركمان عبارته بصوتٍ منهك: «المستأجر الجديد».

- أقصد السيّد بيركويكس.

- السيّد من؟

ردّد ماريو الاسم: «بيركويكس. دانييل بيركويكس. أستاذ النطقيّات، زميلي، المستأجر الذي يشغل الشقة التي عاشت فيها نانسي».

ساد الصمت، ثم قالت السيّدة ووركمان: «سأكون صريحة معك سيّد روتا، وأتمنّى ألّا تنزعج. أنت تعرف أكثر من أيّ أحد أنه حين تحدّثت معي نانسي عن انحرافاتك - وهذا كي نطلق عليها تسميةً ما- قرّرت أن أتحلّى بالتسامح، وتصرّفت هي بالصورة التي يتصرّف بها المستأجر الجيّد. لن أتسامح مع أن تستمرّ في إزعاجها؛ لا هي ولا بقية المستأجرين، ولا أنا نفسي كما حدث حين اتصلت بي ذلك اليوم في وقت متأخر، وأنت ثمل على الأرجح!».

- سيّدة ووركمان.

قاطعته السيّدة ووركمان: «لا تُقاطعني! حالفك الحظّ لأنني كنت نصف نائمة ولا أتذكّر تقريباً شيئاً مما قلته، أو ربما أنني لا أرغب في تذكّره. على كلّ حال، دعني أقل شيئاً ما: أقبل أن تكون علاقتك مع نانسي سيّئة، وأن تكون بينكما مشكلات. لكن حتى إن لم ألقِ بالذنب كله عليك، فنانسي هي أقدم مستأجرة في المنزل، وهي أحقّ منك في البقاء هنا. علاوةً على ذلك، لم تمنحني قطّ سبباً للقلق. سأفضّل أن تكون العلاقة بين المستأجرين جيّدة، لكن أؤكّد لك أنني لن أتردّد أبداً في إلقائك في

الشارع إن تلقّيت شكوى أخرى بخصوصك، أو إن تصرّفت بغرابة مجدداً».

لامها ماريو بضعف: «لكن سيّدة ووركمان.. أنتِ من قدّمتِني إلى السيّد بيركويكس!».

قالت السيّدة ووركمان بنبرة حاسمة: «اسمعني يا سيّد روتا: توقّف عن التفوّه بالحماقات! لا أعرف أصلاً من هو السيّد بيركويكس ولست مهتمّة بمعرفته. لا أودّ أن أتحدّث أكثر من هذا عن الموضوع. لقد قيل كلّ شيء، لكنني سأكرّرها على مسامعك مرة أخرى: أتمنّى ألّا تصلني أيّ شكوى أخرى بخصوصك، وخُذ بنصيحتي: توقّف عن الشرب!».

أنهت السيّدة ووركمان المكالمة. ذهبت إلى غرفة النوم. غسلت وجهها ويديها ونظرت إلى نفسها في المرآة، ثم وضعت قليلاً من الزينة فوق خدّيها وشفتيها، وصفّفت شعرها بفرشاة. بعدئذٍ، بلّلت ظهر شحمة أذنها بقطرة صغيرة من العطر. عادت إلى الغرفة وأمسكت بحقيبة رملية اللون وسترة من الكتّان ارتدتها في غرفة الطعام وهي تلقي نظرة أخيرة على البيت.

أخرجت السيارة من المرأب وسلكت جادة «إليس» وصولاً إلى «غرين». أوقفتها إشارة تُنظّم الحركة المرورية. حينئذٍ، غمغمت وهي تنتظر بشرود تغيّر ألوان الإشارة: «بيركويكس».

بينما يجلس على أريكة غرفة الطعام، أشعل ماريو سيجارة وسحب دخانها بتلذذ. بعدئذٍ، طلب رقماً على الهاتف.

قال حين أجابه صوت نسائي: «جينجر؟ أنا ماريو!».

قالت بريندا: «كيف حالك، ماريو؟ جينجر لم تصل بعد. هل تريد أن أوصل لها أيّ رسالة؟».

تردّد ماريو لحظة، ثم قال: «قولي لها إنني اتصلت وإنني...».

قالت بريندا: «ها هي ذي! أنت محظوظ.. وصلت جينجر! سأوصلك بها يا ماريو، إلى اللقاء!».

سمع ماريو تمتمة مبهمة عبر الخطّ، ثم قالت جينجر بعدئذٍ بلحظة: «ماريو؟ كيف حالك؟!».

قال ماريو: «جيّد. كنت أسأل نفسي ما إذا كنتِ متفرّغة مساء اليوم».

قالت جينجر: «ليس لديّ شيء خاص. لماذا؟».

قال ماريو: «لا أعرف. خطر على بالي أنه قد يروقكِ أن تأتي لنتناول شيئاً في منزلي!».

قالت جينجر: «تبدو لي فكرة رائعة. متى ترغب في أن آتي؟!».

قال ماريو: «حين يروقك. الآن إذا كانت رغبتك!».

قالت قبل أن تغلق: «أنا آتية!».

سحب ماريو نفَساً أخيراً من سيجارته، ثم أطفأها في المنفضة. نظر إلى كومة الكتب والأوراق المصفوفة بصورة فوضوية فوق مسند الأريكة، وفكّر في ترتيبها ونقلها إلى المكتب ليشغل وقته انتظاراً لوصول جينجر.

حينئذٍ، خطرت له فكرة. نهض من فوق الأريكة وفتح بحذر باب الشقّة، واجتاز صحن السلّم وألصق أذنه بباب الشقة المقابلة وكتم أنفاسه، وأنصت إلى الصمت.

فجأةً، سمع صوتاً يرعد من وراء ظهره: «ضقت ذرعاً بك أيها الخنزير الإيطالي! ضقت ذرعاً بك!».

جرّت نانسي كتلتها الجسدية فوق السلالم وهي تحمل مشترياتها. رفع ماريو يديه متأسفاً واعتذر بصورة خرقاء وهو يتراجع نحو شقّته. بعدئذٍ، عرض مساعدة نانسي في ما تحمله.

أجابته نانسي وهي تضع حمولتها على الأرض: «خراء عليك!».

لهثت وفتّشت جيب الفستان الواسع جدّاً الذي لم يُثر الحيرة بخصوص الأبعاد الحقيقية التي يخفيها. أخرجت سلسلة مفاتيحها وأضافت: «لن تنجو هذه المرّة أيها الإيطالي. سأتصل الآن بالعجوز».

رجاها ماريو وتقدّم نحوها وهو يمدّ يديه في سلوك يكاد أن يكون متضرّعاً: «لا. ليس السيّدة ووركمان!».

كانت نانسي قد فتحت بابها. استدارت الآن لتواجه ماريو الذي لاحظ بعض قطرات العرق التي تتلألأ فوق جبهتها.

- لكن هل يُمكن أن يعرف المرء أيّ قرف كنت تفعله هنا؟!

تمتم ماريو: «المستأجر الجديد. وددت فقط أن أرى ما إذا كان بيركويكس.. أقصد.. حسناً».

ابتسم ماريو من دون أن يُنهي عبارته، فنظرت إليه نانسي باستسلام، ربما بأسى.

شخّصت حالته وهي تهزّ رأسها بخفّة يساراً ويميناً: «لست فقط خنزيراً إيطاليّاً، بل أنت أيضاً في طريقك إلى الجنون».

صفعت نانسي الباب لتغلقه، وعاد ماريو إلى الشقّة وأغلق خلفه بابه بهدوء.

وصلت جينجر بعد برهة. ارتدت سترة زرقاء أزرارها حمراء، وتنورة قصيرة سوداء وحذاء أسود اللون أيضاً، مستهلكاً بعض الشيء. التمعت عينها، ففكّر ماريو: «إنها جميلة». جلسا على أريكة غرفة الطعام، واقترح ماريو أن يشربا الويسكي، فقبلت جينجر. حضّر ماريو في المطبخ كأسَي ويسكي وعاد إلى غرفة الطعام.

تحاورا بمعنويات مرتفعة وهما يضحكان ويشربان.

قالت جينجر في إحدى اللحظات بعد فترة صمت وهي تنظر إلى ماريو بعينين زرقاوين جادّتين مغرمتَين: «أنا سعيدة!».

سألها ماريو وهو يرتشف الويسكي: «والسبب؟!».

قالت جينجر: «لا أعرف».

ارتسمت ابتسامة خفيفة على وجهها، وأضافت: «كنت غريباً صباح اليوم».

قال ماريو: «أتخيّل هذا».

ساد الصمت.

قطعته جينجر في النهاية: «ظننت أننا قد انتهينا».

قال ماريو: «وأنا أيضاً».

ترك كأس الويسكي على الأرض، واقترب منها ووضع ذراعه فوق عنقها، وداعب مؤخّرة رقبتها عند منبت شعرها، ثم قبّلها برقّة في شفتيها. انزلقا بعد أن امتدّت قبلتهما ليرقدا فوق الذراع اليمنى للأريكة، ووسط ضحكاتهما سمعا كومة الكتب والأوراق الموجودة هناك تسقط: ثمّة قاموس إيطالي-ألماني، وملاحظات للمحاضرات، وتدوينات، ودليل لعلم النطقيّات، ونسخة مصوّرة من مقال بعنوان: «المقطع في النظرية النطقيّة، مع إشارة خاصة إلى الإيطالية»، بتوقيع دانييل بيركويكس.

خابيير ثيركاس

مؤلّف وروائي إسباني، من مواليد عام 1962. حاصل على درجة الدكتوراه في الدراسات الإسبانية، ويعمل أستاذاً للأدب الإسباني في جامعة جيرونا. تُرجمت أعماله إلى أكثر من ثلاثين لغة، وحصلت على عدد من الجوائز المحلّيّة والعالميّة، من بينها جائزة بلانيتا، والجائزة الوطنية للسرد. ومن أبرز أعماله الروائية: «جنود سالامينا»، «تيرّا ألتا»، «سرعة الضوء»، و«ملك الظلال».

محمد الفولي

مترجم وكاتب مصري من مواليد 1987. تخرّج في كلية الآداب، جامعة القاهرة، قسم اللغة الإسبانية. يعمل منذ 2008 مترجماً ومحرراً ومراسلاً في وكالة الأنباء الإسبانية. تخطت ترجماته حتى الآن عشر ترجمات. ترشّح مرتين للقائمة القصيرة لجائزة «ساويرس» فرع القصة القصيرة لشباب الأدباء. حاز على ميدالية الأمم المتحدة والاتحاد الإفريقي لحفظ السلام «يوناميد» في عام 2008.

صدرت بترجمته لدى دارَي «سرد» و«ممدوح عدوان»: رواية «كظلٍّ يرحل» للكاتب الإسباني «أنطونيو مونيوث مولينا»، ورواية «حاصل الطرح» للكاتبة التشيلية «أليا ترابوكو ثيران»، ورواية «هذيان» للكاتبة الكولومبية «لاورا ريستريبو».